ربيع التنّومة

رواية: ربيع التتومة
تأليف: د. قصي الشيخ عسكر
الطبعة الأولى: ٢٠١٩م
978-9933-628-92-5:ISBN
جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف
إصدار: مؤسسة المثقف العربي، سيدني – أستراليا
نشر وتوزيع: دار أمل الجديدة، دمشق – سوريا

almothaqaf@almothaqaf.com

سورية –دمشق
جوال ٠٠٩٦٣٩٣٢٤٧٢٠٩٦ - ٠٠٩٦٣٩٣٢٠٠٢١٢٦ -
هاتف: ٠٠٩٦٣١١٢٧٧٢٤٢٩٢

قصي الشيخ عسكر

ربيع التنّومة

رواية

مؤسسة المثقف العربي
دار أمل الجديدة

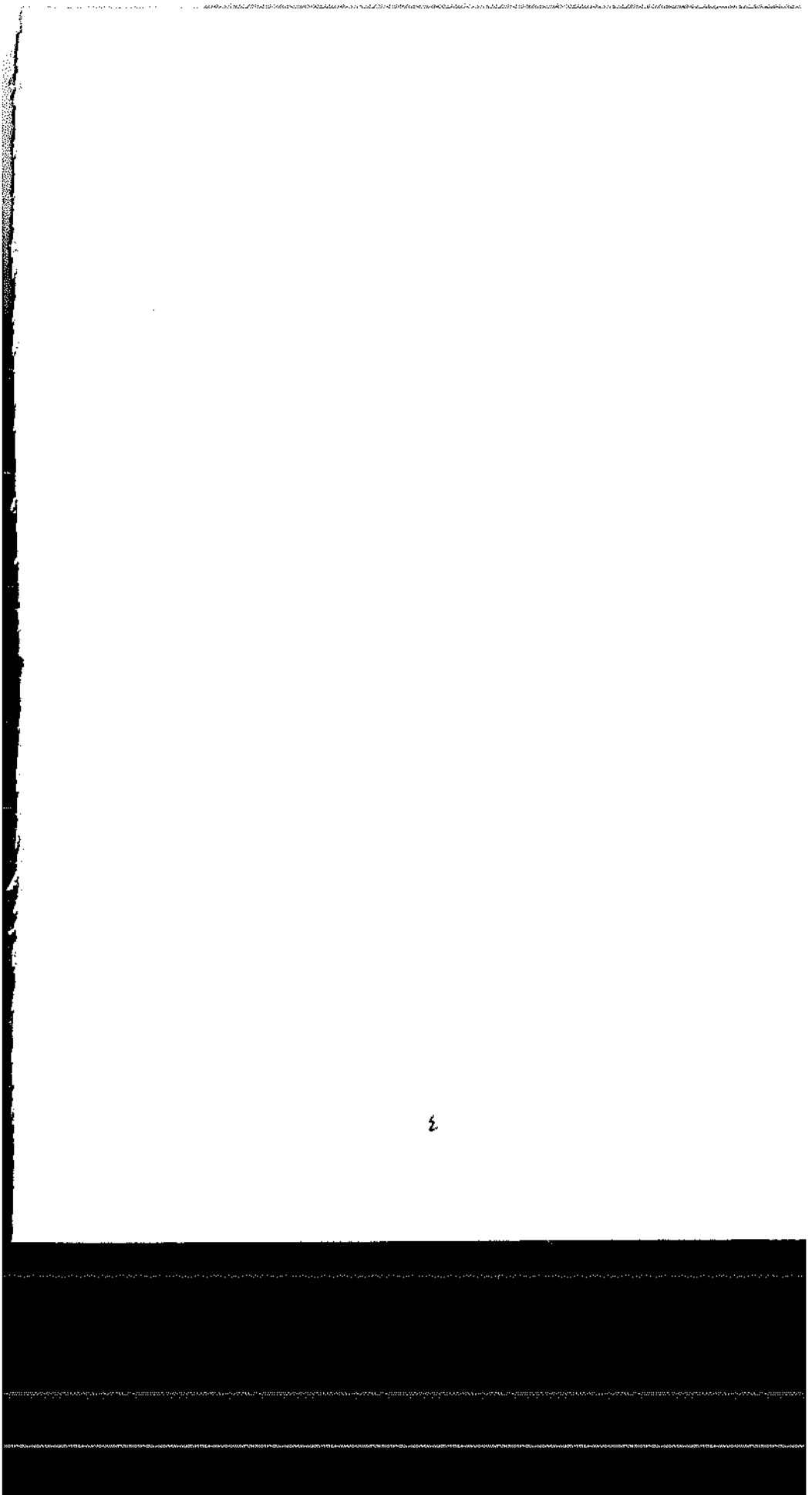

السِّفر الأوّل

الانتفاضة

"حيث تلتبس الحياة بالموت"

السندباد اختفى.

هكذا ورد في الأخبار.

يقال توارى في مكانٍ ما بعيدٍ عن النار. منذ اليوم الأول فرَّ من البحر إلى كهفٍ مجهول، وفي ذلك الصباح الحزين كان الجنود يعودون متعبين يبدون بملابسهم ذات اللون الخاكي مثل أوراق خريف صفراء بعثرتها الرياح. حقا نحن العراقيين لم يبق لنا صاحب في هذه الدنيا فكل بلاد المعمورة تناصبنا العداء. لدينا كلّ شيء، يقول شيوخنا كبار السنّ ويضيفون، أجل كلّ شيء، الماء والزرع والنفط. لغنانا وخيراتنا يبغضنا الآخرون. لا أحد يحبّ فقيرا والعالم كلّه يحسد الغنيّ. قدْ أقتنعُ بما أسمع. لست نائما ولم أكن سكران مثل الرامي معلمي في المدرسة الابتدائية. وأقسم بالله العلي العظيم أني لم أره منذ اليوم الأول من أيام المحنة الأربعين تلك ساعةَ اختفى السندباد. غاب. تلاشى. لكني رأيت أو خُيِّلَ إليَّ أني أسمع ثورا أسود يصرخ لقد أكِلتُ يوم أكِلَ الثور الأبيض. كامل الرامي معلم درس العلوم أصبح في العام الجديد معلم القراءة، وكنا نعيش معه أيام السندباد إلى درجة أننا ظنناه حقيقة لاشك فيها حتى تلاشى البحَّار وعاد الجنود المتعبون. لم تنته الحرب بعدُ. في آب عام ١٩٨٨ انتهت حربٌ، وفي آب عام ١٩٩٠ قامت حرب أخرى. لم يصبر العراق طويلا على سكون الموت. العالم يكرهنا. يريد لنا الخراب. نحن ندخل معركة أخرى نحسمها بست ساعات. صدام حسين يضم الكويت بساعات معدودة. ملخص لحرب دامت ثماني سنوات. بروفة. ساندوج. الكويت ساندوج صغير. مقدمة

كتاب اسمه تحرير فلسطين. بلد مساحته أكبر ثلاث مرات من لبنان ضمه القعقاع بست ساعات. الأمر سيّان. هي حكمة الله وقضاؤه وقدره. يهدي القوة لمن يشاء والضعف لمن يشاء. خلق أضعف الرجال ويستخلف أقواهم. وأنا مازلت أفتقدُكَ ياجارنا معلمي كامل الرامي فمن عاشرك يكتشف فيك كلَّ يوم شيئا جديدا. في هذه اللحظة وأنا أتابع مسيرة الجنود المتعبين القادمين من العشار إلى شط العرب حيث يلتمسون عند التومة الطريق الأكثر أمانا نحو بغداد أتذكرك. جنود منهكون حفاة عراة. شعث الرؤوس. ممزقو الثياب جائعون. هل كنت أنت السندباد حقا أم أنا؟ نظريتك في الحرب سقطت، كنت تقول سرّاً أو علنا لن تقف الحرب حتى نرى مذيع التلفزيون رشدي عبد الصاحب أصلع ذا لحية بيضاء يذيع بلاغا عن جنديين عراقي وإيراني بقيا يتقاتلان عند الحدود. ونظريتك حول السندباد مازالت قائمة. كنت الوحيد من بين المعلمين لا ترى البحر يمدّ نفسه من الخليج إلى البصرة. هل يعقل أيها الجغرافيون. أيها المؤرخون. العلماء. لا أجد يصدق أن دجلة والفرات يحملان مليارات الأطنان من الصخر والتراب ليسدّا بحرا عميقا يتمدد من البصرة إلى الصحراء حيث الكويت. لو كان ذلك حقا لأصبحت تركيا أول بنا. أين هي نظرية التوازن. أنا لا أعرفها، والتلاميذ يجهلونها لكنّ الأستاذ كاملا الرامي، قبل ان يدمن السكر ليل نهار، يقول مهما جرف دجلة والفرات من تراب إلى الخليج فلن تنقص الجبال ولا تنطمر المستنقعات أو البحار، هراء، أما نحن فسنظلّ مغرمين بالبحر ولن نشبع حتى نجد حربا

أخرى، انتهت الحرب مع إيران ولم تنته فها هي تشبُّ داخل الكويت. تشطر إلى ذرات أصغر. يومها أحضر مدرس التاريخ القديم خريطة للعراق. كنت في الصف الأول المتوسط. قال انظروا كان البحر يغطي الناصرية ويقف عند النجف. نحن أهل التنومة كنا إذن بحرا. ومن قريب كان دجلة والفرات يلتقيان في القرنة. الله لقد صدَّقتُ الحكاية برمّتها. حكاية كذبة البحر والطمي سمعناها من المعلم كامل نفسه. لم نعد تلاميذ صغارا بل في المرحلة المتوسطة ولم يعد من يعلمنا معلما بل مدرسا أما كامل الرامي فقد قال هذا مدرس حمار. يحمل البكلوريوس لكنه بهيمة. إنه الشعور بالنقص. نحن نشعر بالنقص، فسخيل أنفسنا على بحر ونصطنع السندباد. بل نجعله يصارع الموج فيصبح الناجي الوحيد من دون الآخرين. إسمعوا ليست هناك من حقيقة علمية تثبت أن البحر امتد في عمق العراق. وجدنا أنفسنا قادة العالم زمن هارون الرشيد، امبراطورية عظمى ولا بحر، لا ساحل لنا فاخترعنا السندباد قاهر البحار والأمواج ثم عانقْنا عصر النور فلم نجد بدا من أن نجعل البحر إلينا يسعى في العمق، وبعد أن يئسنا صفقنا للملك غازي وهو يعلن تبعية الكويت لنا وباركنا عبد الكريم قاسم حين عين الشيخ الصباح قائمقام لقضاء الكويت. بحثنا طويلا فوجدنا أن المنفذ يمكن أن يكون المحمرة أخفقنا فتوجهنا نحو القضاء السليب. الله كم هي طويلة تلك الرحلة. هي عقدة النقص قلا يغرنَّك يا عبد الله كلام ذلك المدرس الحمار!

أستاذ مامعنى عقدة نقص؟!

في كل منا عقدة نقص. حين تكبرون تستوعبون معناها. السندباد نفسه عقدة نقص. شخص لا بحر لديه وهو الوحيد الذي يغلب الموج والبحار. قصة المدرسة الابتدائية تغزو الذاكرة من جديد. الثور الأسود أيُّ ثور هو. أكلتنا أمريكا يوم أُكِلَ الاتحاد السوفيتي. يوم أُكِلَ الشيوعيون عام ١٩٦٣ ويوم أكلَ عبد الناصر ١٩٦٧ ويوم أُكِلَت إيران بحرب الثمان سنوات. آخر المطاف نحن الثور الأبيض. لا أدري أيُّ لون كان هذا الثور يحمل. بقي تائها في الصحراء يبحث عن منفذ ما في البحر. والماء مثل خيط من المطاط يمكن أن نمدَّه كيف نشاء ولا ينقطع. من زمن هارون الرشيد نبحث عن منفذ بحري. مررنا بتجارب كثيرة. مطلنا البحر وهاجمنا دولا: عرب المحيسن. بني كعب. بني أسد. جاءت قواتنا تحرركم. يا أهل المحمَّرة ها هم جنودنا بينكم. المحمَّرة عراقية. أنتم العرب الخلصاء. هؤلاء مجوس. نحن عرب وهم فرس. سنة نحن وهم شيعة. البحث مازال مستمرا عن أبي لؤلؤة المنشوري. القوات العراقية فتشت الشوش. سيف سعد. قوس الزين. قصر شيرين أين أختفى القاتل الشرير الذي تعلقت به أدران المجرمين من عهد قابيل. الجنود العراقيون أبناء الماجدات يواصلون بحثهم. لعل الوقت ذاته أن يلتحق ببلاد فارس لا أظنه في كردستان فأنا كنت صغيرا ووقفت شاهدا مع أبي وأخي عام ١٩٥٨. جاء الملا مصطفى البارزاني بالبارجة من منفاه، فتدافع أهل البصرة نحوه. من يريد أن يشمه ومن يريد أن يقبله. غرق زورق، ولم يحزنوا. خرجنا نصيح: يا مصطفى أهلا بك. صافحه وجهاء التومة باسم أهل شطّ العرب

تدافعوا إليه، وأُقسِمُ بالله العلّيِّ العظيم أني لم أر معه أيَّ قاتل، لا أبا لؤلؤة المجوسي ولاقارون ولا أيّاً من الذين تبحث عنهم الحكومة ويصور أشكالهم المقيتة خيال صلاح أبي سيف الخصب. من يعرف أن وجه خالد بن الوليد أكله الجدري ووجه العلايلي جميل وسيم يدرك عقدة النقص تلك التي أدركتها حين كبرت في رجلي العرجاء والتي حدثنا من قبل عنها معلمنا كامل الرامي ونحن طلاب في السنة الأولى المتوسطة وهو يشبِّه مدرس التاريخ القديم بالحمار لأنه قال إن البصرة كانت على بحر كذلك يدعي أن وجه خالد بن الوليد مجدور، والآن بعد أن رجعنا من إيران وأقسم السادات أن القاتل الفاتك ليس في مصر ظنناه مختبئا في الكويت في مكان ما. الحمراء. الفحيحيل. الجهراء، مجرد شك. وأنا مازلت على ضفاف شط العرب أبحث عن السندباد الهارب، لم أكن لأظن شأن غيري أن هناك حربا بعد القادسية فقد بدأت التنومة تتنفس وتعود إلى هدوئها السابق. أكثر من خمس سنوات وأهلها بعيدون عنها. فارقوها ولم نفارقها. خرجنا منها بأمر عسكري ورجعنا إليها بأمر. هكذا شاءت أصوات المدافع والطائرات. أعراس وحفلات. أفراح دعا لها بالدوام البدوي راجي المزروع الذي كاد الفرح يقتله منذ زار شط العرب الرئيس خلال الحرب وقصد بيته. عَمَار أيتها التنومة دائما أنت في عزٍّ وأفراح ومباركة لك خطوة ضيفك الكبير، السلام يخيم على شاطئك الهارف القوام فتستعيدين أيتها اللاهثة عن رحلة شاقة طويلة أنفاسك. تسترجعين أحشاءك التي لفظتها ذات يوم. لست الوحيدة في هذا العالم فكل

ماحولك من مدن وقرى وجبال وسهول وبحار تتقاسم الفناء الهائل، الدنيا كلها تتناسخ في صورنا. الكواسج في شط العرب تنقض على الأسماك، والطيور تبتلع الدود من طين الأنهار. دود القزّ يفتك بأوراق اليوكالبتوس. والعناكب تستدرج الحشرات إلى بيوتها الواهنة. فمن لا يتصوّر أن الأفاعي لا تبتلع الضفادع والجرذان، والكواسر تهوي من السماء لاتخطف الأرانب في البرّ، وكم أُعجِبَ أهلُكِ بمنظر التماسيح في قرى بعيدة عنك وهي تلتفُّ على الغزلان العطشى الهائمة إلى موارد المياه. فلم لاتكون هناك في شط العرب تماسيح كما في أعالي النيل أو استراليا وأمريكا؟ العالم مجنون يفتك بعضه ببعض، يتقاتل كلٌّ من فيه وماعليه حتى الريح تتعارك والشجر، ظننتك تعيشين بسلام أبد الآبدين. حرب العراق وإيران آخر الحروب فهؤلاء الغجر انطلقوا في الشوارع يغنون من المغرب إلى الفجر. في كل مكان يغنون. في الإذاعة يغنون، والطرقات، كذبة نيسان. مفاجأة. بعد كلّ هذا الدمار المهول والخراب والقتل كلّ يعود إلى مكانه. وكالات أنباء العالم تتناقل الخبر ونحن لانصدق نشكُّ في أن تكون لعبة ما. لا نثق إلا بمحطة لندن ولن تُخيِّب لنا أمل قطّ فقد سمعنا منها الخبر رأس كل ساعة حالما تتلاشى دقاتها العنيفة القوية التي يداعب رنينها الصافي الدائب بهسيس المذياع آذاننا: إيران وافقت! آية الله خميني يتجرع السّم! العراق مزهو بحلة من الفرح والانتصار الكبير! العراق قبلَ العرض. رضي وقف الحرب شرط أن يطلق هو آخر صاروخ! موت أم لعبة أطفال. أنت الأول. أنت بدأت أنا من يختم، مع ذلك فقد انطلق

مارد الفجر من مكمنه. سيظل يغني في كل مكان إلى ماشاءَ الله إلى أن جاءت الحرب الثانية. لنعلم عندها أننا لسنا استثناء من هذا الفناء المخيف فنحن مثل غيرنا بعضٌ من هذا العالم السادر في الهلاك والنزاع اللذين اندلعا من زمن آدم وحواء:

-كباب رائع بدينار!

-الآن عملناه. طازج. جديد!

-مازال ساخنا.

من قبل جعلت من السطح هوايتي المفضلة:إرسال الطائرات الورقية إلى الفضاء. قبل أن تأتينا تلك الحشرات المعدنية التي تشبه اليعاسيب. أمدّ لطائرتي الخيط. أنتظر الهواء بفارغ الصبر، وفي ليالي الصيف حين ينزل الندى نستلقي على الأفرشة نرى النجوم الساطعة. عادة ألفناها قبل اندلاع حرب الخليج الأولى وقبل أن ينحدر العالم إلى هاوية الحر فيلفي الناس نومة السطوح. أروح من على فراشي أعد النجوم فأضيع في أوائلها قبل أن أبدأ في آخرها.تيمورلنك يعد النجوم. يظنّ أن هناك في السماء مملكة أخرى يضمّها إلى مملكته. إعجني يا أم مثنى. اعجنوا لنعمل كبابا أبيعه للجنود المتسكعين الجائعين، فأين السطح من أيام زمان، والعائدون من قبضة الموت يخرجون عن نطاق الحصر والعد! إعجني يا عزيزتي. المكان نفسه تعجن فيه أختاي وتقليان الكباب، لكنه مكان نظيف لم أدنسه قط بأية حماقة. لا أدعي الاختراع. سمعت جليل منصور مراقب الصف يتحدث عن ابتكاره الجديد. حدث هذا بعد أن أطلقت طائرتي الورقية إلى السماء.

مصيدة الفئران يضع عليها قليلا من الشعير فيأتيها الحمام وهممت أن أفعل مثله فقد تقبض المصيدة على رجل الحمامة. سأكمن وبيدي سكين، حالما أجد عنق الحمامة في المصيدة أسارع إليها قبل أن تموت عندئذ صرخت بي أمي في المكان ذاته:

والله سوف نقرف الأكل بسببك يا أعرج ياتيمورلنك الشؤم ستجعلنا نكره أكل اللحم، ونعاف الطعام. سأذبحك والله العظيم يا أعرج وليسمع أبوك الذي يمدُّ لك حبل الصبر فلا تخشى العقاب!

-جربّه يا سيدي. كباب طازج. خذ واحدة دون مقابل!

-هذا التلفزيون إنه من الكويت.

الجيش يلوذ بالفرار وأنا على السطح أحاول صيد حمامة بفخ جرذ فياللسماء ويااللقرف:

-أموالنا رجعت لنا.

أيّام زمان كان الكويتي يأتي إلى البصرة يتمتع بمتنزهاتها مخلفا وراءه الرمال. لا شيء سوى البترول. هو النفط الذي تحولت معه الرمال والغبار إلى جنة. صرنا نحسدهم وهذه بضاعتنا رُدّت إلينا أما نحن هذه المرة فقد ذهبنا إلى الكويت ولم يعرف أهلها بقدومنا لنعود بأسلاب حرب كثيرة:

-البدلة بنصف الثمن من سوق واجف. أنظرها محلاتنا لا تبيع مثل هذه العلامات التجارية.

جيش أم لصوص؟ ذهبنا إلى إيران نبحث عن أبي لؤلؤة المجوسي فرجعنا بسلب كبير من الأهواز وعبادان. تلفزيونات، أغنام، أقراط ذهبية. خيرات كثيرة لاتعد ولا تحصى، ودخلنا الكويت نلقي

القبض على الفرعون قارون صاحب الذهب والمال فلم نجده. اختفى فجأة. زاغ عن الأنظار وعدنا بسلب كبير ومال وفير:

-حذاء إيطالي سعره عشرة خذه بربع! ربع دينار فقط.

-ليس معك نقود؟ خذه مجانا.

ورجل على رصيف شارع دينار يستعرض مجموعة من النعال:

-هذا زايد. هذا أطلقنا عليه اسم فهد. هذا جابر!

-يا سيدي قارون هنا بكل ماله ومليارته يباع بربع دينار!

-أشياء جديدة لم نرها من قبل أين كنا بل أين كانت عنا؟!

لم تعد الكويت دولة كاملة اختفت من الوجود، حذفتها الخرائط فدخلت التاريخ أصبحت ذات يوم، قبل عقود، قضاء وها هي مثل التنومة تتمدد فتصبح إحدى المحافظات، أما أنا فأجد أني اشتريت مصيدة جديدة لا أصيد بها الفئران بل الحمام والعصافير غير أن غضب أمي العارم عليّ وعلى صاحبي جليل منصور مكتشف الطريقة الجديدة أودى بكلّ شيء، وتساءلت مع ذلك هل تستسيغ نفسي حقا حماما يقع في مصيدة فأر:

-ما هو مقاسك فهد أم جابر!

هي علامة قديمة. أبعد مما يراها أبناء الشوارع اللصوص الذين نهبوا الكويت وجاؤوا يعرضون السَّلَبَ في شارع دينار. العراق والكويت والماضي البعيد. بالأمس أُعْدِمَ عقيد هرّب ذهبا إلى البصرة. وكان هناك من الجيش من يسوق قطيع أغنام نهبه من بساتين الأهواز، ورأيت – أنا الأعرج ذو القدم المشوهة– بأمٍّ عينيَّ – خلال مظاهرة مؤيدة للجزائر صحبت فيها أخي الأكبر – الذي

اختارته ألمانيا – ذات يوم شخصا يحمل محفظة سوداء ويصيح:رحم الله من فقد محفظة نقود ليأت وليأخذها ولا أحد يتقدم، وقد كثرت أحلامي هذه الأيام فما تذكرت لحظة احتلال لأي مكان إلا أجد نفسي أمام تظاهرة خرج فيها الملوك والرؤساء العرب، كانوا صامتين لايتكلمون، فقط وحده الرئيس الصومالي محمد زياد بري يصيح رحم الله من أضاع خصية، رحم الله من أضاع خصية فظننته يكرر عبارته ثلاث مرات غير أنه ظل يعلس جملته مثل آلة تسجيل خالطها عطب فكأني لم أسمع شيئا.

-معطف، بعشرين.

-سروال، قميص، حرير.

أشياء محرومون منها، خيراتنا كثيرة ونحن نعيش الحرمان أين كانت هذه السلع عن عيوننا، رحم الله من أضاع خصية، نداء الرئيس الصومالي يختلط بأصوات الباعة الذين جلبوا سلعا من الكويت فتتفتح شهية جائع لرائحة شواء تملأ رئتيه عن بعد، وموظف معنا في الدائرة لم تعرف طفلته شكل الموز همس خشية من عقاب ربّاني لارادّ له:

-لايجوز حرام حرام.

أختي الكبيرة حذرتني من أن أشتري أي شيء، حرام، كنت أذهب إلى العشار، بخاصة بعدما كبرت وعرفت أن السندباد ذو عقدة نقص مثلي، قد لا تكون ظاهرة في جسده، أباشر الدوام في عملي، فأرى صور المنتصرين تتجسد في باعة سرقوا مخازن الكويت ومستودعاتها، أبناء شوارع وموظفون، معلمون وأساتذة

جامعات. عمال وفلاحون. كل يسرق حسب طريقته. الكويت مفتوحة مشرعة الأبواب وهناك من يصرخ في أعماقه بصوت خافت خشية من أن يسمعه أحد فتقع الطامة الكبرى على رأسه:

-يا عالم يا بشر افهموا هذه أموال ناس مثلكم. تجار وكسبة. محلات. ليست بخزائن الدولة ولا أموال الشيوخ من آل الصباح والله حرام! حرام!

أين السندباد من السراق في هذه اللحظة. وعلاء الدين ذو المصباح الذي يكشف الأسرار ببريقه. تبخروا. جميعهم تواروا. ضربات في الزبير تهز التنومة. هو الموت الذي أوعدتكم به العجوز الشمطاء تاتشر. ستعيدنا إلى القرون الوسطى. نشرب من ماء النهر ونطبخ على الحطب. من قبل كنا نفكر كيف نموت. هل أكثر من أن يتوفى الله كبار السنّ أو يبتلع شط العرب وأبناؤه الأنهر الصغار أحد الصبيان. الموت يتفنن بحادث سيارة. صعقة كهرباء. قضاء الله وقدره هو. يومه انتهى رحمه الله. الآن تاتشر جاءت إلينا بفناء جديد. يقول أبي عن أبيه وأمي عن جدتها إن الانكليزعام ١٩١٤ جربوا كل المزروعات في العراق القطن والموز. نجح الموز في شط العرب. واستعصى القطن. ويرد على لسان معلمي الرامي ان الحكومة أرسلت إلى براغ أبا الفيصل رئيس الجمعيات الفلاحية الذي يوقع فقط ولا يقرؤ بتوقيع له شكل دائرة صغيرة، هناك في (كسج) (لوفاكيا) وفق ما ينطقه لسانه العربي الأصيل الذي لا يجيد صياغة الغريب رآى موزا وقطنا أحمر لكنه أكل قشر الموز ورمى لبّاً ظنّه نواة، هذه المرة بعد قرن. جرَّب الإنكليز بدلا من

النباتات مختلف الأسلحة. لن يجرؤ الأمريكان بعد عقدة فيتنام على خوض معركة أخرى لكن العجوز الشمطاء الدّاهية انفردت ساعة واحدة بالسيد بوش فتغير كل شيء. انقلب العالم وجاء شوارسكوف. كأن الحمم تنفجر في آذننا وليست هناك على بعد عند الحدود. أختي تلوذ بي وابن أختي الصغير مثنّى يلوذ بأمه وأبيه. البصرة تغلي على نار. نار في السماء ونار من تحت الأرض يالها من مياه ساخنة. فورة تنبع من الأرض فتشق جليد سيبيريا. وبحيرة تغلي في مدينة بشمال الأرض لم يعلق اسمها بذاكرتي. علاء الدين يطفيء مصباحه قبل أن تقنصه طائرة شبح. تعتيم. ظلام دامس. هكذا هي الحرب الحقيقية. لا. نحن نريد الرجوع إلى الحرب الإيرانية. مهما يكن فهي أرحم بكثير من هذا الجحيم الذي لا نعرف من أين يأتي وعلى من يقع. موت أرحم من موت. كانت المدفعية الإيرانية أكثر دفئا وحنانا. ولم نر فيها جنديا يقبّل حذاء جندي أجنبي متذللا ألا يقتله:

ألم تقولوا انتهت الحرب، فما هذا الصخب؟

كانت أمي في أحسن حال بعد توقف الحرب العراقية الإيرانية، ربما استعادت بعض ذاكرتها التائهة في البحث عن أخي "أحمد" الذي غادر قبل الحرب العراقية الإيرانية في بعثة إلى ألمانيا ولم يرجع. عادت لها الحياة مع خطوط الهاتف التي استردت بعض عافيتها ففاجأنا أخي ذات يوم من بون. يوم أشبه بالعيد. كنت في العمل وفي نية السيد القاضي أن يكلفني بحمل أوراق إلى بغداد. لكن أختي الصغرى تحدثت مع أخي قالت له إنها هي وأختي

الكبرى اشترتا قطعتي أرض في الحي الجامعي فوعدهما أن يرسل لهما بعض المال. بعد رجوعي من العمل وجدت والدتي في أبهى حلة قرأت على وجهها ووجنتيها بصمة من حياة وإشراقة فرح يكاد لا ينتهي. بشرتني أنها تحدثت مع أخي وصلت ركعتي شكر لله. لم تخبر الغائب البعيد بخبر وفاة أبي خلال الحرب أكدت له أنه في العمرة، فمتى يعود الغائبان والحرب العراقية الإيرانية اندلعت من جديد:

-لا ياأمي لم تكن تلك حربا إنه طيران!

-هل زحفت القوات الإيرانية من جديد. ماذا يريدون؟

-لا ليست إيران!

كأن ذاكرتها سطعت في إحدى لحظات الماضي فلم تستطع كبح جماحها:

-لماذا يحاربون الخميني كان عهد الشاه عهد فساد والآن تلفزيون إيران تغير ليس هناك من مذيعة تظهر عارية!

إنهم إخوة. حدودنا مفتوحة أمامهم. وأمي التي تصارع خرف الشيخوخة تعدّها حربا مستمرة بين مذيعتين واحدة عارية والأخرى محجبة وتتساءل كيف يعود أخي. أين أنت يا بريجنيف؟ خروشوف هل متّ؟ أين هو الاتحاد السوفيتي. الثور الأحمر الثور الاسود. هل يجرؤون على ضربنا لو كان برجينيف موجودا لكنه هذا الجبان غورباتشوف. اللعنة لم يبق لنا صاحب. سببنا الاتحاد السوفيتي حتى النخاع أولئك مسقوفيون كفرة. أنجاس. لا يؤمنون بالله. وهؤلاء الجيران فرس مجوس يعبدون النار. فخامة الرئيس رفسنجاني.

رجعنا إلى اتفاقية الجزائر والتزمنا بها وفق مارأيتم. انتهت العقدة. إيران معنا. الرئيس رفسنجاني أصبح أخا ولم يعد الخميني دجّالا، والفرس عنصر آري يطلب الغرب ثأرا قديما. فتوى حاسمة تزلزل الأرض وتجعل إيران تهب هبة رجلا

فليدخل الزوار إلى النجف وكربلا

وقتما يشاؤون.

لم يتوقع أحد أن نقع في هذا الفخ الذي يظل يفرّخ الموت كل يوم. حمامة غبية تدخل مصيدة فأر. مازلنا نأكل ونشرب ونحيا بسلام والرحمة لمن ماتوا، ولعلني كنت في أفضل حال. بعض الأحيان يكلّفني القاضي وبعض المراجعين بحمل طلبات إلى بغداد فأحصل على أجور كثيرة. أحيانا يتصل أخي في البيت فتلوح على وجه أمي سعادة من دونما حدود. وكلما نجح في الاتصال بعد جهد، أرى العجوز تعود طفلة لا تعرف الحزن والشقاء فلا تتذكر إلا "أحمد" وعودة أبي من العمرة. لاأنكر أن هناك بعض المنفصلات فقد كنت أنا أو أيُّ موظف تربطه علاقة بمهاجرٍ في الخارج عرضةً للسؤال من قبل ضابط أمن الدائرة، ياسيدي أخي ذهب في بعثة قبل الحرب. السفارة الالمانية دعت لمسابقة علمية تخص الفيزياء، فاجتاز الامتحان من بين العشرات. هل اتصل بكم؟ أنت تعرف أن الخطوط بدأت تعمل! أنم يتصل من قبل؟ كيف والتنومة منطقة حرب، ونحن عدنا إليها بعد بلاغ بالرحيل لرسائل؟ أبدا فقط اتصال عبر الهاتف. تفضل وقع!

الاسئلة ذاتها تعيد نفسها كلّ شهر!

وفي أقل من ساعات يتغير كلّ شيء. لا ملفات لا توقيع. لا سؤال عن مهاجر في الخارج، وأنا لم أعد أناور في الدائرة يائسا مرةً، ومتفائلا مرةً أخرى أمام موظف يسألني ويقدم لي أوراقا أوقع عليها بين حين وآخر، فتطلّ علينا من حيث نتوقع ولا نتوقع زغرودة تهز المكان وتجلجل الغرف وتختلط بنشوة الموظفين وأصوات السيارات العابرة وفرقعة الصخب المحموم:

-العراق استعاد الكويت!

-حقنا رجع إلينا.

-متى؟

-اليوم قبل قليل!

-فعل البطل مالم يجرؤ عليه غازي وقاسم!

-رجل والله من ظهر رجل!

الرئيس ذكي يعرف متى يهادن ومتى يقاتل!

-مسألة الكويت يا إخوان حقّ اتفق عليه الجميع. الملك غازي. نوري السعيد. عبد الكريم ثم جاء الرئيس أطال الله عمره فأنجز ما عجز عنه غيره!

-حلم تحقق!

إذاً هي الحرب. ونحن نعمل والحياة تجري شأنها كل يوم. ولا أحد يفكر بحرب جديدة. بعد ستة أشهر مرت من الجوع والحصار يطل الرئيس عبر شاشة التلفزيون يعد العالم بغدٍ أفضل: سوف ندحر أمريكا والغرب بأمّ المعارك. قاتلنا بالقعقاع فهزمنا الفرس المجوس، واليوم من جديد في الكويت يحتشد عنترة والمهلهل

وحمورابي وعلي وخالد ذو الوجه الصبوح، والقعقاع وصلاح الدين وعبد الناصر كلّ هؤلاء يقودهم السيد الرئيس في جبهة الكويت؛

أنظروا ياعرب رئيسنا مع الجنود وأميرهم هارب. هارب مثل الدجاجة. لن تنفعك أموالك ياقارونّ

-سيدي سوف نأكلهم!

-ماذا تغديتم اليوم؟

-السمك الزبيدي سيدي.

-سوف نأكلهم ونمصّ عظامهم مثلما نأكل السمك الزبيدي!

-لا تخافوا أيها الأبطال فأنتم الصواريخ وأنتم الطيران افعلوا بهم ماتشاؤون.

أيها العرب. أيها المسلمون. ها هي الكويت تستباح. القوات العراقية تقترب. المذيع الكويتي يصرخ. يستغيث بالعرب والمسلمين. يظل يستحث الضمائر إلى أن يتلاشى صوته، ولايطالعنا بعد انقطاع المذياع إلا صدى من أشهُر كأنها سكاكين ترقص شفراتها على بلاغات معادة لا يختلف أولها عن الآخر. غربان. طيرانهم غربان. صواريخهم لا تؤذي. بلاغ صادر عن وزارة الدفاع. اخترقت مجالنا الجوي مجموعة من الغربان فتصدت مقاومتنا وأجبرتها على الفرار. مظاهرات من المحيط إلى الخليج هذه الملايين معنا. شعب الصومال يتضامن معنا. ربما هو تفسير حلمي السابق عن ضياع الخصية، الباكستان. الناس في بنغلادش معنا لاتقولوا إنهم فقراء يشحذون اللقمة. الفقراء أحباب الله وكل مانيله وسائل

الإعلام العربية ماهو إلا إشاعات وأضغاث أحلام. كل مايفعله طيران العدو وصواريخه يشبه في أحسن الأحوال وخزات دبوس تافه.

لو يصبح ذلك حلما بغيضا يستعصي على الذاكرة. لاأحد كان يتوقع اجتياح الكويت. آخر كابوس مزعج كنا نراهن عليه. حزب البعث هو الذي اعترف بدولة الكويت عام ١٩٦٣ الرئيس قال عدة مرات إنه في خندق مع الاتحاد السوفيتي ياعرب نحن أصدقاء السوفيت. أما بنادقنا فيمكن أن تستدير نحوهم بيسر حين يفكرون بمهاجمتكم. قاتلنا ثماني سنوات إيران من أجل الجزر الثلاث ولم تكن الكويت شيعية ولا فارسية، ألا تثقوا بنا. الرئيس مبارك طمأنكم. الرئيس أكد له لن يهاجمكم فلتناموا ملء جفونكم رغدا. ما يقال يشيع البهجة في نفوسنا. المهمة انتهت عند البوابة الشرقية والخطوة التالية إسرائيل. رئيسنا يعانق صاحب السمو يهديه بندقية:

-ستجدني عندك في الكويت قريبا!

مناورة. ابتزاز لا أقل ولا أكثر ربما يؤدي إلى احتلال بعض آبار البترول. هناك ألف دليل على أن الأمر زوبعة في فنجان. من يحمي العرب إذا سقط الرئيس. عجول الخليج حقا إنهم عجول. كامل الرامي يبتسم ويدعي أننا جميعنا عجول. ألم نشرب حليب البقرة. العجل أخونا ثم نذبح أمنا بالرضاعة. الهندوس أشرف من الجميع على الأقل لايذبحون أماتهم اللائي يرضعنهم لكن كيف يهين الكويتي العجل. الماجدة العراقية. يريدونها مثل الروسية تمنح

نفسها مقابل علك تافه. تقف على رصيف بشارع في دبي تجتذب الزبائن. أراد الفرس أن يتزوجوا بناتنا زواج متعة وهؤلاء البدو تُسَوِّل لهم أنفسهم الدنيئة مضاجعة العراقيات. حرسنا لهم البوابة الشرقية فأهانوا شرف نسائنا. ولعل جميع الأدلة – رغم ما قيل وما يقال – تشير إلى أن الأمور لا تسير نحو الأسوأ. حسن النية جعلني أسهر إلى ساعة متأخرة. سماعة المذياع في أذني وكل الشواهد في أعماقي تنفي وقوع الكارثة. حتى آخر لحظة كنت مطمئنا إلى تصريح الرئيس المصري وَوَعْدٍ قطعه له فارس القادسية. كانت غرفتي في الطابق العلوي على السطح في حين رقدت أمي وأختي الكبرى في غرفة وأختي الصغرى وزوجها وابنها في الغرفة الأخرى. هدوء تام وليس هناك أصدق لهجة من الرئيس مبارك. العراق أبعد من أن يحتل الكويت. غلاسبي تلمّح ولن تُخدَعَ بمعسول الكلام. وأنا أغفو مطمئنا بعد سهر طويل. عند تمثال السياب لاح لي مبارك، وفي وسط الفلكة يقف الرئيس. ضفة العشار وضفة شط العرب:

-الراقصة!

قال الثاني على الفور:

-ابن. عرس.

كلمات مشوشة. لهجة غريبة. ضحكة. قهقهة. التفت فلم أر الرجلين لكني أحسست أن خدرا دب بقدمي المشوّهة فأيقظني من النوم فاكتشفت أنها لم تكن ضحكة عادية. كانت هناك حشرجة ما تصدر عن المذياع. لم أفهم شيئا. أدرت المؤشر على إذاعة بغداد، فكانت تبث أناشيد من التي اعتدنا سماعها كل

يوم. استعذت بالله من أضغاث أحلام تبدي في النوم الفرح وتتغذى في اليقظة على الكوارث والأحزان. هناك هاجس ما يلعب بي بين النكتة والمأساة منذ زمن بعيد ، وبحركة لا أرادية أدرت المؤشر على محطة الكويت فسمعت الكارثة. كان المذيع يستغيث بالعرب والمسلمين. أين أنتم ياعرب ها هي الكويت تستباح. هاهم الكويتيون يُقتلون تُسفَك دماؤهم تُنتَهب أموالُهم وَتُستَبَاح حرماتُهم. الموت يحدق بنا. الطاعون. غلاسبي لَمَّحت وَخُدعْنا. أين مصر وسوريا. أين الجزائر. هل ماتت الضمائر. تيقّنْتُ أنَّ حوادث غريبة أبعد من الخيال وقعت وشلالاً جديداً من الدم تدفق فلايكون بإمكان أيِّ انسان إيقافه، وفي الصباح عند العاشرة في الدائرة حيث أعمل ولما أنطق بعد مع أي كان انطلقت زغرودة الفراشة التي جلجلت المكان:

-أرضنا رجعت لنا!

-ماضاع حق وراءه مطالب!

-الشراب يارجال على حسابي!

أم عباس الفراشة:

-أحلى شراب لعيني بطل القادسية!

لعنة الله عليكم. استلم الثمن حقق مصالح الغرب بحربه مع إيران وقبض الكويت ثمنها ، فأين ذهب المغنون والمنشدون وكيف توارت في لحظات السلام الأميري أيامُ زمانٍ فانحشرتْ داخل فوهة بندقية. سيادته حقق حلم غازي وعبد الكريم قاسم فناما قريري العيون ياجلالة الملك وسيادة الزعيم:

-لو فعل المصريون والسوريون مثلنا والله لن تبقى إسرائيل نصف ساعة!

وتؤكد أختي الصغرى بحماس:

-العرب جبناء خافوا أن يصدروا بيان إدانة مجرد إدانة!

-غلاسبي خدعته!

ابن أختي الصغير يردد كلمات لايعرفها:

-كحاب كداوند!

سيدي الرئيس: ما أحرى بالمتنبي أن يولد في عصرك لا زمن سيف الدولة، شجاعة عليّ وعدل عمر. نزار قباني لم يوفك حقك حين قال فيك، حالما خرج من حضرتك بعد لقاءٍ ساحرٍ إنك انت الرجل الوحيد في هذه الأمة. أمة لا رجل فيها غيرك، ومازالت سعاد الصباح تشمّ صدرك حتى ظن أصحاب السوء أنها سلمتك الغالي والنفيس بعدها راحت تصرخ فيك. كنت تقاتل عنهم يا سيادة الرئيس، نام الكويتيون رغدا خلال ثماني سنوات وأبواب بيوتهم مشرعة. لا يخافون لصًا يقدم من الشرق، يحلمون بالأمان. الخليج كله ينعم بالورود والعطور والسفر. ثم تلملم الأميرة أوراقها وتهرول إلى لندن. نحن حراس. حراس بوابات. حراس بساتين. لانملك أرضا ولاسماء. فقط حراسٌ لبابٍ كبيرٍ أطلق عليه إخواننا العرب بوابة الشرق. كلهم تبرّؤوا منك يافخامة الرئيس. أمة خصيان ومخانيث. فؤاد المهندس يضحك منك. يجعلك مسخرة في إذاعة مصر. أنت صاحب هواية غريبة عجيبة. هناك من يجمع الطوابع والصور، وهناك من يهتم بالبحث عن العملات، وأنت تجمّع دولا. هواية

تجميع الأراضي! عزت العلايلي لايدري أنك ستجيِّر شريط القادسية لغرض سياسي وإلا لما أصبح سعد بن أبي وقاص. ولاهَمَّ المخرج بتبديل وجهٍ أكله الجدري لخالد بن الوليد إلى طلعة بهية. الفرس إخوة لنا وما أحد من أبطال الشريط يعرف أنك دفعت ثمنه ليكون جسرك فيما بعد إلى إيران. كلمة واحدة من خامنئي يمكن أن تقلب الموازين. السندريلا مظلومة ستعيد المشهد الخطأ الذي لا يد لها فيه، ولها أن تطالب أجراً مضاعفا غير الأجر الأول. ليكن ذلك. المشهد من جديد. ليلى طاهر أبدعت. أبو عوف يتنصل هو وأخواته الجميلات من وعدٍ قطعوه على أنفسهم أن يغنوا من دون ثمن إذا انتهت الحرب العراقية الإيرانية، والممثِّل الكويتي الأشقر يدعيّ بعد سنوات أنه أصبح نباتيا قَرَفَاً من كثرة اللحم الذي تناوله في أثناء تمثيل الشريط، فياترى أين الكويتي الرويشد وأغنياته بأمجاد القادسية؟ لم يبق معك ياسيادة الرئيس إلا مغنو العراق وفنانوه الفجر الذين منحتهم هويّة أصلية لم يمتلكوها ذات يوم، والسود أصحاب الهيوة. وقد أرسلت لك التتومة مطربها الشاب يشدّ من أزرك بصوته الريفيّ العذب. لا يهم. لامانع عنده أن يقف في دار الإذاعة من الفجر إلى منتصف الليل. نحن معك سيادة الرئيس فقد اكتشف العرب الأقحاح أنهم مخطؤون جدا، وشيخ الأزهر يلتفت أخيرا فيعرف أن سعدا من العشرة المبشَّرة، هؤلاء كل واحد منهم له خصية زائدة أكثر منا نحن البشر العاديين تمنع أي ممثل من أن يشخصهم، فلم يبق لنا من عالم السينما سوى الأيام الطويلة وكان لنا معه بدل القادسية ساحل طويل. ساحل امتد من الناصرية

إلى نقطة بعيدة في الخليج، اذهب يا أنور السادات بعيدا عن سوق التومة ثوارٌ في مكان ما. البندورة تأتينا من الأردن. أسواقنا تزهو بالتفاح اللبنانيّ. والقمح من USA. فماذا يزرع راشد؟ أمّال راشد بيزرع أيه، وفي بالي تطرأ فكرة جديدة هؤلاء الجنود العائدون المتعبون الجوعى بل هو الجيش الخامس الجرار. نعم أستطيع أن أستفيد منهم. فكرة حديثة لم يسبقني إليها أحد: طلبت من أختي وصهري أن يعجنوا. كنا نستفيد من سطح الدار حيث غرفتي وثمة مساحة تفيض عن الحاجة. في هذه الأثناء، خلال حصار البصرة، كان ابن جيراننا يقود شاحنته الصغيرة إلى عبادان. يتبضع من هناك الطحين وبعض الخضار والفاكهة ويعود يبيعها إلى محلتنا. أصبح المجوس هم المنفذ الوحيد لنا. الرئة التي نتنفس بها؛ الخميني الدجال تغير إلى رجل صالح. فخامة الأخ رفسنجاني: عدنا إلى اتفاقية الجزائر. نحن الآن نحارب فرعون. السياسة حقل عهر تنبت فيه بذرة الحلال والحرام. مومس لا تعرف صاحبا أو عدوا. المجوس. أبو حنيفة. ابن حنبل. البخاري مسلم. الطوسي. الطبرسي. أصحاب العمائم رفسنجاني. الكرفس الخبز. اللحم البندورة. لأبيهم. المهم أن نعيش. البخاري يبيع لنا الفجل ومسلم يغلق كتابه مشغولا بالبندورة. فقط نعيش بأي ثمن كان. رحت أشتري الطحين والبقدونس. نعجن على السطح فأحمل الصينية إلى باحة الثلكة حيث يمر الجنود المتعبون الخائرون:

-كباب سندويج دينار!

طازج تماما. قبل دقائق عملناه.

جنود جوعى يثيرون الشفقة يبدون كحال شارلي شابلن المترنح. أراهم فأتخيل أن شابلن يعود إلى التنومة بعد أن تلقى لكمات من كلاي العملاق. كباب kiss عرضك والصحفي الأجنبي يسأل:

-سيادة الرئيس من معك إنك وحدك!

-أبدا أنت مخطيء ألم تر المظاهرات المليونية في بنغلادش ومصر و.

-لكنهم فقراء لا يملكون شيئا.

فقراء. ينامون في المقابر. عراة حفاة. الله يكون في عون مترجم الرئيس الذي يختار كلمات يدوخ منها اللغوي والأمي:

-فقراء نعم الله يحب الفقراء. الفقراء أحباب الله!

كباب أيها الأبطال. جزاكم الله خيرا. قاتلتم عن الرئيس خير قتال. راح الجنود يتهافتون على الكباب. بعضهم التهم من دون أن يدفع. حرامية لم يكفهم نهب الكويت. ابن الجيران رآى طريقتي مربحة فأتى بصينية كبيرة واستقر عند مدرج المرفأ من الطرف الآخر. كنت مشغولا. بالكباب والجنود منهمكون في الأكل أشبه بالعميان. والطيران الأمريكي يدك البنايات الحكومية ومناطق يأوي إليها الحزبيون وبعض قطعات الجيش. كنا نخاف أن يندس بعض المقاتلين بين البيوت فيطاردهم الطيران. ليس لعبا. هؤلاء تحالف. لاتظنوها شبيهة بالحرب مع إيران. التحالف. ثلاثون دولة وأنت ياخاصي الأسد ومضرط الحجارة. في كل مكان ضربات موتٍ قانٍ لايوقفه بريجينيف أحمر ولا خميني أسود. لقد أكلتُ يومَ أكِلَ الثور الأبيض. داء يستشري كالسرطان القاتل.

لاعلاج له إلا النسيان أو التجاهل. مع ذلك تجاهلنا الموت. وفي غمرة انهماكي مع الكباب وغفلتي عن الموت المحيط بالبصرة جاء صهري يهرع إليّ. يحمل خبرا سيئا عن أمي. كانت ترقد على سريرها فاستفزها صوت قوي تخيلته في بيت الجيران فنطت من السرير وسقطت على الأرض. أين الطبيب، وما أبعد المستشفى. الصوت الذي أسقط أمي سمعته نفسه في الذاكير، ورفعت بصري إلى المرفأ في الضفة الأخرى للشط فرأيت خيط دخان كثيف يتصاعد إلى السماء. أمي في خطر. الموت من دون حرب، ومن لي بسيارة أجرة تنقلها إلى مستشفى الخورة. بل أين هو البترول كي تتحرك السيارات. أختاي تعولان. القصف من حولنا. وأمي أقرب إلى الموت منها إلى الحياة. ليت التحالف لايقدم على تدمير جسر التنومة حتى أنقل والدتي إلى مستشفى الخورة. ليكن بعد ذلك الطوفان. ليبق الجسر بأي ثمن. أرجوك ياشوارسكوف. هي نفوسنا الأولى بالنجاة وليكن مايكون. ربما انطلقتُ، لحظتها من غمرة يأس وآثرتُ نفسي لكنه أقرب إلى يوم المحشر وكل نفس تسعى إلى نجاتها قبل غيرها. نسيت أبطال الأفلام وعصابات الكابوي وقصف المدفعية الإيرانية. هذه هي الحرب الحقيقية. إيران مثل شخص يقطع يدك، وهؤلاء كأيّ وحش يمزّقُك إربا إربا. رحت أهرول نحو بيت الجيران صاحب الشاحنة الصغيرة. كنا أهل حارة واحدة وهو أساسا يرجع من حيث النسب إلى قرابة بعيدة لوالدتي. لم يمانع الرجل، فشاعت في نفسي سكينة. ارتياح. طمأنينة ما. أدركت أن بقية من الخير مازالت عالقة في صدور العراقيين على

الرغم من المآسي التي مروا بها. كدت من قبل أظن أن طيبة أهل البصرة تبخرت. لينهب الناس، وليسرق اللصوص أيّ بيت تركه أهله. تلك هي البصرة التي تجردت من عفتها في حرب الثماني سنوات. لتلتقيَ من باب المعقول أو المصادفة حربا أخرى أشدَّ ضراوةً وعنفا.

موت ثانٍ وخراب وسرقة وقتل!

في حرب العراق وإيران القادسية المزعومة فرت التنومة بعد ثلاث سنوات إلى العشار وها هو الأمان يحدق بقبضته علينا فيفكر الآخرون بالعبور إلينا وكانت الدعة ذاتها بوجهها القديم ولباسها الزاهي الجديد أبشع صورة من الخوف المحدق بالعشار إذ في التنومة الساكنة الهادئة العائدة للحياة من جديد تسقط أمي مشلولة من الخوف!!

ما أشد المفارقات حضورا في زمن الرعب !

هناك حيث العشار لا يموت أحد تحت القصف وفي التنومة تموت أمي على السرير!

بقيت أختي الكبرى معها في المستشفى. وأوصتنا أن نجلب معنا – حين نجد فرصة ما للمجيء – فانوسا قد تحتاجه، فالمشفى في حال الحرب يُشغِّل مولد الكهرباء من أجل غرفة العمليات فقط. لم أخرج في اليوم التالي إلى الفلكة ولم نعجن. زارنا بعض الجيران يَطمَئِنون على الوالدة وكان من بين الزائرين كامل الرامي نفسه. لم يكن الجو وقتها جو مرح ونكتة. بل بدت مأساة والدتي المشلولة تلقي بظلالها عليه كيوم رأيته بوفاة والده فمن يمنع

الرامي من الضحك والنكتة والسخرية وافتعال الأزمات غير الموت ومواسم الحزن التي ماتنفك تلتصق بنا:

أين كنت فهذا هو اليوم الثلاثون من القصف!

في النجف

معقول؟

أمس رجعت!

خطرت لي فكرة أن أزور قبر أبي!

أخذتني الدهشة حتى كدت لا أصدق عينيّ وأذنيّ بل أشكّ في كل حواسّي!

آخر خبر، كل الأمور تغيرت، هل سقطت نظرياته. نزل عن حذف سورة الكوثر مقابل أن يصبح مؤمنا. ولم يعد يرى الصلاة مثلثا من رياضة ورقصا وعبادة. لا أعجب أن ينقلب القومي إلى شاذ والشيوعي إلى بعثي، ألم يشر الرامي في بداية تهتكه وتمرد، ويغادر بيت والده الذي قال له أمام الملأ: الم تقرأ ياكامل في كتاب الله لا تقل لهما أفٍّ، فردّ عليه بسخرية وصوت أقرب إلى العفطة:لأنه ليس له أم أوأب ولو كان له حقا لقال لهما تفو، أيّ انقلاب ياأستاذ كامل هذا؟ رحم الله والدك، كان أبي يلومك على سلوكك الاهوج. أنت معلم قدوة. ابني عبد الله تلميذك. جيراننا الطيبون يحبونك على مافيك من عبث وكفر. قبل يومين من وفاته عاتبك أبي وإمام الجامع على طلاق زوجتك ابنة عمك كوثر، وسكرك المتواصل، ولم يكن هناك أمامك من وسيلة لتتخلص من الإحراج سوى أن ترتجل نظرية جديدة: سأترك العرق

فأصلي وأصوم إذا حذفتم سورة الكوثر من القرآن. لافائدة منك كما يقول أبي، والآن ينقلب كلّ شيء رأسا على عقب، هل تظنون ايها الرفاق في مقر الفرقة أني أكره الخميني. الإسلام رائع عظيم لو لا أنه حرّم الخمرة، ولو يملك الخميني الشجاعة الكافية ويفتي بحلّها لكنت أوّل من يؤيده علنا وبقدرة قادر تحوّلت سخريتك إلى حكمة جديدة. اختفى محل طلية والعرق الفاخر والبيرة المثلجة وبدأ نادي موظفي شط العرب يبيع الشاي والباقلاء والخيار واللبن من دون خمر، السكارى صاحون طوال اليوم لايجد الرامي مسكرا فيظنه الرفاق يهذي. ممكن أن تصنع العرق في البيت. لكن لا أحد يصدق أنك هناك حيث الموت يمتد أمامك فتكاد تظن القبور لا تنتهي، وتشعر أن الأرض مغطاة برماد الموتى. وأنها ستضيق بهم يوما ما عند ذاك تفكر أن الدنيا فانية فيصبح الموت صديقك وأنك تظلمه حين تتجاهله ولاتفكّر به إلا لحادث ما أو وفاة شخص!

مفاجأة غير متوقعة. كامل الرامي يفكر بالحياة والموت، ويهجر الحياة الفانية. ينسى الكحول ويترك الخمر. أجمل الأوقات عنده ساعة الفجر يجلس وعلى المنضدة أمامه قنينة عرق يستمع إلى الشيخ عبد الباسط وبعده فيروز. نحن في عصر الغرائب مثل المفاجأة التي حدثت ثاني يوم لوجود أمي في المشفى. سمعنا ضربتين من جهة الخورة كادتا لشدتهما ترفعان التنومة إلى عمق السماء وتهبطان بها ثانية إلى الأرض. راقبت من على السطح خيط دخانٍ يتعالى من خلف المستشفى وصرخت:

الضربة في الخورة.

وهتف صهري غاضبا بحشرجة:

الكلاب يلوذون بالمؤسسات المدنية فيجعلونها هدفا للطيران!

دروع بشرية!

حملت فانوسا وخطوت خارجا همت أختي الصغرى أن تتبعني فدفعتها بعنف صارخا:

ابقي مع زوجك وابنك فمن الأفضل إن حدث مكروه إن يموت واحد منا.

هرولت وأنا أحمل الفانوس باتجاه الجسر. الصخب والضجيج والطيران والحمم والنار المتلاسنة من بعيد أنستني حكاية سمعتها من والدي والرامي ومعلمين آخرين عن فيلسوف كان يحمل فانوسا في النهار. أحيانا أنسى السخرية من نفسي وآخرين وأتجاهل أصدقائي القدامى كاري كوبر وترنتي أصدقاء تلهيت بهم عن قدمي المشوهة يوم كنت صبيا.

وسط الصخب وعرجي تهاديت بمصباح نحو الخورة.

كان علي أن أقطع المسافة إلى الضفة غير آبهٍ بما يجري حولي كأن قوّةً جامحةً اعترتني من جديد. لم أخف قط. كنت على يقين أني لن أجد أية سيارة أجرة. ليس هناك من محطة وقود تعمل. وكان من المفترض أن نطبخ – نحن أهل التنومة – مثل العشار على الحطب لولا تلك الشاحنات التي تنقل إلينا الغاز من إيران. ولم يساورني خوف من الطيران الذي حفظت ضرباته عن ظهر قلب. كان يدمر منشآت البترول والمحطات ولا يقصد مؤسسات الدولة

إلا حين يلجأ إليها الرفاق. وكُلّ همي أن أصل إلى مستشفى الخورة فأعرف هل تمرضتْ لقصف. كنت أمشي وأهرول أحياناً. وربما عجبت من نفسي حين وجدتني في حديقة المستشفى وجها لوجه مع أختي:

-ما الخبر؟

استلمت مني الفانوس قائلة:

-ملحق المستشفى الخلفي تعرض لضربة طيران!

كان المشهد مأساويا حقا. بعض المرضى من نزلاء الطابق الأسفل تكدسوا في الحديقة وهم يتراجفون من البرد. ورأيت مريضا ممسكا بخاصرته والممرضات في هرج يتسابقن لنقل المرضى:

-اين أمي؟

-في الطابق الثالث!

-كيف حالها؟

-لاتقلق إنها بخير.

وَهَتَفَ صوتٌ من جانب الحديقة شغلت عن صاحبه بالنظر نحو مرضى تكدس بعضهم فوق بعض:

-المسلحون دخلوا الملحق فحدثت المأساة!

البناء الذي يضم مولد الكهرباء وخزان الماء دُمِّر وما على المرضى إلا أن يرحلوا جميعهم إلى المستشفى الجمهوري في باب الزبير. عدد كبير من سيارات الإسعاف معطل. لاسيارات أجرة إلا من تطوع من أهل الخير. هل أعود إلى التنومة وأرجو جارنا مرة

أخرى؟ لم يكن الظلام قد خيم بعد وكان بإمكاننا الصعود من دون فانوس إلى الطابق الثالث ومن ثم نقل والدتي إلى الحديقة. كنا في طريقنا إلى الدرج حين اعترضتنا ممرضة تلهث من التعب والخوف:

-أيمكن لو سمحتما أن استعير الفانوس؟

وأردفت قبل أن تسألها أختي:

-في غرفة العمليات هناك الطبيب بحاجة إليه لإجراء عملية مهمة لمريض!

في الطابق الثالث كانت والدتي في حال يرثى لها. وحين أجلستها أختي رأيت آثاراً ما وشممت بعض رائحة. يبدو أنها لم تتحمل هول الصوت القوي فكانت بقايا تلك الآثار تتناثر على ظهرها. هرولت أبحث عن ممرضة تساعد أختي في تنظيفها. وبعد دقائق كنا نحملها فننزل الدرج من الطابق الثالث. لاأدري من اين حصلت أختي على تلك القوة، وكيف تغلبت على رقة وضعف فيها فتحملت معي العبء. وكم مرة اصطدمنا بآخرين يصعدون وينزلون. ربما هي المآسي تزرع فينا من المقدرة أضعاف مانعرفه في أنفسنا. أستاذي السابق في مرحلة الابتدائية اكتشفت بعد سنين طويلة قوة كامنة فيه كان يحتقرها. رأى الموت في الحرب العراقية الإيرانية وشاهد جثثا تسقط من الشظايا فكره الموت وكفر بالله ثم بوقفة قصيرة أمام قبر يلفه السكون والإهمال منذ سنوات صادق الموت وآمن بالله، نزل عن عبئه وبقي لا يرغب في عودة زوجته. وأنا الآن أكره كل نكتة أمام الموت. أكره كاري كوبر

وترنتي ولا أعجب ببطل يقتل الآخرين وهو يدخن السيجار ويموج فمه ساخرا من موت رأيته على الشاشة فَرِحا فكرهته الآن وبطل صفقت له وهو يقتل قفز أمامي بشحمه ولحمه ينفخ فوهة المسدس ويهتف kiss، كنت اعود أدراجي إلى التنومة وصوت أختي يحثني:

انتبه لنفسك أحضر لها بطانية البرد شديد!

بدا المشوار هائلا من الخورة إلى التنومة. أن تجد سيارة أجرة كمن يبحث عن جرة في بحر. كما لوأنني أقطع مئات الأميال فتنبثق من على جوانبها أشلاء ومبانٍ مهدَّمَةٌ. جنينا من حرب إيران الجنون إذ كل الأسرى الذين عادوا من إيران وفيهم بعض المسِّ، وفي هذا الجو المشحون بالجنون أتظاهر أني العاقل الوحيد لكي لايحسدني الناس، فماذا نقطف من حرب التحالف؟ ربما يصبح معتوهو الحرب العراقية الإيرانية عقلاء فأصبح معتوها!

لكني كنت بعد ساعات أقف في حديقة مستشفى الخورة حاملا بطانية ولم أر أمي. نصف المرضى اختفوا فهل أصلحوا محول الكهرباء وخزان الماء والأجهزة الأخرى أم ماذا.؟المرضة التي استعارت مني الفانوس قطعت عليَّ تساؤلي:

-جاءت سيارات إسعاف من المستشفى الجمهوري وسيارات محسنين نقلت المرضى!

مشوار طويل آخر. انتظار يطول. جارنا صاحب الشاحنة أقلني بباب المشفى ورجع. رائع منه أن يصحبني مرتين في مثل هذه الظروف. والظلام نفسه بدأ يهبط. أختي الصغرى وابنها وصهري في التنومة. أنا في الخورة. أختي مع أمي في المستشفى الجمهوري، فهل

أقطع تلك المسافة الطويلة على قدمي؟ ليس من المعقول أن أعود إلى التومة. ولاتشبث بأي شيء كان شاحنة، عربة، دراجة، الطيران يطل فوق رأسي فهل أمشي كل تلك المسافة؟رجلي العرجاء والطيران في السماء. مجنون أدعي أني عاقل هربا من الحسد، والمسافة إلى المشفى الجمهوري تابى أن تتقلّص. تلتمّ. لعل عربات الإسعاف تعود ثانية من المشفى الجمهوري لتنقل مابقي من مرضى مشفى الخورة فأندس بينها. لذت بالممرضة التي استعارت الفانوس من أختي، قالت بابتسامة طردت القلق عني:

لا بأس سأجعلك تصعد مع أية سيارة إسعاف!

هل يقبلونها هناك؟

لاأدري قد يتوفر مكان ما أم لا.

بعد أكثر من ساعة وصلت سيارات إسعاف عائدة من المشفى الجمهوري. كنت أندس في واحدة منها. ظلام يعيقني عن رؤية مايجري في الخارج. لا أميّز الوجوه ولا أسمع سوى بعض الأنين كأن المرضى الباقين يخشون من أن تسمعهم طيور السماء أو كأنهم تعبوا من الصراخ والخوف والبرد فنقدوا طاقتهم على الأنين. ولم يكن وصولي إلى المشفى ليغير شيئا في حال أمسي. كانت ملتفة في حضن أختي ببطانية قديمة. وكان المرضى يتكدسون عند المدخل بين البوابة والاستعلامات منتظرين أمر تصريح بالدخول. غطيتها بالبطانية الأخرى. كان وجهها أصفر وحالها يبعث على القلق. بدت يداها بازدتين واجتاحت زجفة بين حين وآخر كتفيها. تطلعت بعينيها وسط العتمة لعلني أستشف

شيئا ما. وكانت الانفجارات تأتي وتغيب. الغربان التي استهزأ بها مذيع بغداد والبلاغ العسكري الذي حفظناه عن ظهر قلب. تلك الغربان تنعب فوق رؤوسنا وعيوننا تتعلق بموظّفٍ ذي صدارٍ أبيضَ يطل علينا من غرفة الاستقبال:

لابأس عليكم أن تبقوا هنا بضع ساعات حالما يتم ترتيب المكان!

يهم الموظف بالدخول ثانية فيعترضه صوت هستيري:

هذه جريمة جريمة والله!

ينزل درجة أسفل المدخل ويقول منبها:

مشفانا ممتلىء. لدينا ألف سرير، هذه إمكاناتنا وأنتم ماشاء الله، أنتظروا قليلا ريثما نهيىء لمرضاكم أماكن أخرى وإلا سوف يتدخل الحرس!

كان يحذر من أية أعمال شغب. تهديد. ولم يكن لدينا بدّ من القبول والانتظار. بلعنا حنقنا وزادت المخاوف من أن يظننا طيار مغامر بعض المقاتلين الهاربين إلى المشفى فيستهدفنا. في هذه اللحظة أخذت رأس أمي في حضني كأني ألوذ بها من هواجس تجتاحني. هواجس غريبة لايمنعني عنها الظلام ولا تدركها قذائف التنوير المكتظة بها سماء البصرة. مرت أكثر من ساعة، ووخزات البرد أخذت تقسو وتزداد حدة.

فجأة.

كما لو أنه خدر يدبّ في حضني.

اهتزت أمي هزات خلتها من الحمى فتسمرت عيناي في عينيها

المحدقتين تارة بوجهي وتارة بوجه أختي حتى استقرت على أفق غير محدد كأنها تتطلع إلى مدار بعيد وصرخت أختي:

ماتت! ماتت!

في هذه اللحظة فرقع صوت من بعيد! شد انتباه ذوي المرضى المزدحمين بمدخل المشفى الجمهوري، وتراقصت في فجوات الظلام أنات بعض المتعبين. وربما سقط انبوب مُغَذٍ من ذراع مريض وتدحرج صاحب عملية على حافة صخرة قريبة. كانت صرخات اختي تتردد في الباحة فيعقبها صوت انفجار قوي من جهة الشرق يلحقه آخر. صوت هائل ثالث يتبعه رابع. بركان قذف حممه، وصاح صوت وسط العتمة:

ياساتر أظنها في التتومة!

في التتومة أم غيرها إنه الموت يطاردنا أينما نحل، هل اصطاد الطيران مسلحين اختبأوا في مدرسة أم دائرة البريد وأختي المنحنية على جثة أمي لاتعي أي تخرص وأظن تهويمتها على الجثة استلبتها حسًّا فلم تنتبه إلى الضربة التي ابتلعت صراخها أما أنا فهو القدر نفسه الذي جعلني من حيث لاأدري أرفع جثة أمي التي لفظت أنفاسها من البرد والرعب في اللحظة ذاتها التي دك فيها الطيران جسر التتومة العسكري وكان يقطع مابين الضفتين!

لقد ضاعت جنازة أمي وسط التصدع والخراب والموت اليومي الهائل، المتواصل، ويحق للأحزان مهما كانت أصيلة أن تضيع وتتلاشى في الحوادث الهائلة فلا يعنى بها أحد، وبعد أربعين يوما من الضربات الجوية أي عشرين يوما على وفاة أمي بدء الهجوم

البري. لو كنا في ظرف طبيعيّ لأعرضنا عن رؤية التلفاز وسماع المذياع لكنها الظروف الراهنة وحالة الحرب. لا أغالي إن الجو العام خفف من وقع مصيبتنا. ومثلما حدث موت أبي خلال الحرب مع إيران ماتت أمي في منتصف الحرب الثانية، والناس مشغولون بأمر آخر. ومن الطبيعي أن تهوّن المصائب الكبيرة والكوارث من مصائبنا الصغيرة. مات رحمه الله. قُتِلَ مات. في وفاة أبي راح الفجر يغنون لانتصارات جيشنا. الجميع مشغولون بالحرب والغناء، وفي موت أمي تزأر السماء، ولعلي شعرت بفراغ كبير لفراقها أكثر من غيري لم يهونه عليّ إلا ماكنت أعيشه وأحسه من أحداث كثيرة تدور حولي.

كنا نسمع عن اندحار الجيش وهزيمته من الإذاعات العربية. هل يعقل أننا آخر من نعلم. سمعت في الليل من المذياع خبر احتلال الكويت ثم الساعة العاشرة انطلقت في الدائرة حيث أعمل زغرودة تبشر باستعادة المحافظة السابعة عشرة. القضاء السليب. حينذاك كنا سبعة ملايين. واحد وعشرون مليونا، والله العظيم نأكلهم كما يقول شاعرنا الكبير: نأكلهم. نأكلهم سيدي، الكويتون ياسيادة الرئيس ليسوا شجعانا مثلنا. دبابات فيها مكيفات تبريد وأدوات موسيقى. تلفونات. أسرة منام. رمان. تفاح. عنب قناني ماء. أهذه دبابات أم أسواق متنقلة؟ أي حرب هذه. نأكلهم والله ونمصُّ عظامهم كما نأكل السمك أما هؤلاء الأمريكان فهم أجبن خلق الله. كل يوم يدَّعون البدء بالهجوم ولم يهجموا بعد. جبناء. جاؤوا يحمون لوطية مثلهم. لو كانت عند أبي جميل فراش دائرتنا ألف

بنت وجاء كويتي يخطبها لما زوجّها له. إنهم لايرتاحون إلاّ إذا مارسوا من الخلف. على طريقة أبي خالد. رقم خمسة الشهير الذي فلسف به كامل الرامي العالم. جبناء ولوطية. مرت أربعون يوما على عدوانهم الجوي ولم يأتوا ، والرئيس بوش في اليوم الثالث لبدء الهجوم البري يعلن بيانه الشهير. لدى الجنود العراقيين مهلة لأن يتركوا أسلحتهم في مكانها ويرجعوا من حيث أتوا من الساعة الثامنة صباحا إلى الثامنة مساء. حصرونا في ١٢ ساعة، وحاصرونا في البصرة. الإذاعات كلها تعلن أن الجيش اندحر في جبهة البصرة والدبابات تذوب مثل الوسخ في الصابون وبلاغ بغداد يعترض. غربان العدو في السماء. مضاداتنا تطاردهم. جيشنا يتصدى. هل نكذّب العالم كله. جيش حمورابي العظيم. قائد السبيّ البابلي. حفيد القعقاع. القادسية. أسد بابل. سعاد حسني. . حشود الممثلين والفنانين. حضارتنا. كلّ شيء لدينا حشره الرئيس بوش في ١٢ ساعة فقط. إما أن ينسحب الجيش الرابع أو الخامس لاأدري أو يقلى عن بكرة أبيه!

كنا نتطلع إلى الضفة الأخرى والقلق يراودنا على الرغم من عزل التنومة عن العشار. وقتها كان الجيش يتصاع لبيان الرئيس بوش. ويبدو أنهم ظنوا الحرب نكتة كما فعلوا خلال ثماني سنوات مع إيران. هذه هي الحرب الحقيقية. الأمريكان في صفوان والجيش إمّا يباد أو يعود أدراجه داخل مدينة البصرة!

أمران أحلاهما مرّ!

وقد جاءت البشائر من العشار!

بالضبط كما يقولون من ساحة سعد!

مفاجأة وليست مفاجأة.

هاهم الجنود يختارون طريق السلامة، فمازالت هناك في الأذهان صورة الجندي العراقي في أول يوم للهجوم البري يركع على بسطال الجندي الأمريكي:

-عمي لاتقتلني!

على الرغم من الحزن فقد ضحكت. شبعت ضحكا. كيف يفهم الأمريكي عمي لاتقتلني!. عمي. أين هو المترجم. زوج أختي يقول بسخرية:

-هل تذكرون التونسي الذي قبل حذاء أم كلثوم على المسرح!

فترد أختي الكبرى وهي تقطب حاجبيها:

-والله العظيم ذاك أشرف!

-على فكرة الشيء بالشيء يذكر والحذاء يجر الحذاء.

-على الأقل شخص معجب بالفن لاالقتل عمل ذلك عن قناعة ولا عن رغبة أوخوف!

وما بين اليوم الأول – يوم تقبيل الحذاء – واليوم الثالث انجلى الأمر.

الصور والتماثيل تتهاوى. والوجوه تكشف عن أقنعتها. صورة واحدة ظلت عالقة بالأذهان لجندي عراقي يهوي على حذاء جندي أمريكي. عمي الله يخيلك لاتقتلني! هذا هو تمثال الرئيس وتلك هي صورته. لم يكد الفجر يطل حتى غازلت ضفاف التتومة

المعزولة عن العشار نداءات متباينة من مكبرات الصوت:

الله أكبر!

يا أهالي البصرة الله أكبر!

الطاغية سقط.

بشرى الطاغية يسقط!

لم يعد هناك طيران في الجو، ولا أي صخب كنا نسمع الأصوات الهاربة من العشار نقية صافية لاشك فيها. شيء ما. أمر أبعد من أن يصدق. حدث غير عادي. تاريخ يسجل نفسه من جديد، وجميع أهل شط العرب ينصتون إلى مكبرات العشار:

إنها الثورة!! العراق كله يلتهب! اسمعوا، لا تخافوا.

الحكومة فقدت قبضتها!! المحافظات كلها تلتهب. تعلن العصيان. لانريد حاكما يجرنا إلى هزائم!

دولة من دون جيش! بل هو الجيش الذي عاد منكسرا من الكويت رجع يزحف على بغداد. لا تخافوا! أية دولة هذه! لا وسائل اتصال سوى مكبرات الصوت من المساجد والحسينيات، وفوق البيوت تعلن التمرد والعصيان.

زعقت كمجنون:

إنها انتفاضة!! انتفاضة

اندفعت عن غير وعي. حاولت أختي الكبرى أن تعترضني عند الباب، فأزحتها ولحقني صهري إلى الطريق. كانت سورة الغضب تدفعني نحو المسجد. خاطرة بلمح البصر تجتاح ذهني وفكرة تتوقّد لو نجحت لغيرت صورة التنومة كثيرا. سنصبح مثل العشار

ثائرين. مثل العمارة. والناصرية والكوت والنجف. هم ليسوا أفضل منا والتنومة تقدر أن تقدم الكثير. انصرف ذهني إلى اللواء المنتشر في بستان (أصفر) القريب منا وبعض الدبابات بين البساتين ودبابة في مقدمة البستان على بعد أمتار من مقر الفرقة الحزبية. لم أتدرب على السلاح ولا أعرف كيف أستخدم الرشاش فقط صادقت كاري كوبر وكوردن مشن ورأيتهم يقتلون اعداءهم كان أبي موظف الموانيء الطيب يغفر لي كل تسيبي متعللا بعاهتي، أما والدتي فكانت متحكمة في البيت. أحيانا أزعجها فتخاطبني أعرج كن عاقلا. لم يكن بوسعي أن ألعب مع صبيان الحارة الذين يتجمعون عصر كل يوم ليتباروا في كرة القدم. ولم يفكر أي من الفريقين أن يجعلني حارس مرمى إلا مرة واحدة. وفي لحظة الهياج واختلاط الامور كان ترنتي يقتل أعداءه وينفخ فوهة المسدس وهو يقول kiss kiss. الفكرة الخارقة تلح علي وتصور لي نفسي قادرة على فعل عمل مهم. كان هناك أناس يتراكضون، وحزبيون يهرولون في الشوارع والأزقة. حثثت الخطى باتجاه المسجد، وكنت أتعاون مع صهري في تشغيل المولد الكهربائي الذي مازالت فيه كمية ضئيلة من البترول. حمل صهري مكبر الصوت إلى مكان بعيد. كان أكثر خبرة مني في شؤون الحرب. أربع سنوات جعلته يلزم الحذر كثيرا. قال لو تركنا مكبرة الصوت في المسجد فقد يظنها طيران التحالف هدفا أو تلفت نظر طائرات الهيليكوبتر. لايمكننا أن نصدق أن الجيش فقد كل شيء. مدَّ سلكا طويلا ربط أحد طرفيه بالمكبرة وخطى خارج الجامع على بعد مسافة

فتسلق نخلة علق عند أعلاها المكبر. وثبت طرف السلك بلاقطة المايكرفون أمام المنبر.

كان كل شيء على مايرام.

البيان الأول جواب أهل العشار!

في هذه اللحظة خفّت حدة التوتر من جسدي ومالت سورة الغضب إلى كلمات. كنت أقف أمام المايكرفون والكلمات تسعى على لساني سهلة لذيذة حلوة حماسية:

أيها اللواء البطل.

لقد انهار الجلاد والثورة تشتعل في كل المحافظات.

يا أبناء شط العرب الأشاوس:

يا أهالي التنومة. ظننت نفسي أحلق بعيدا. أقود أناسا يعرفونني. جيوش تستسلم لي. هي المرة الأولى أقف خلف ميكرفون. لا أصدق عيني. بل لا أصدق نفسي. أيُعقل أن يستسلم لواء كامل لنداء شخص أعرج مثلي؟ولو رأيت جنودا مسلحين يقصدون الجامع أو مدرعة تتجه إلى مكاني لزغت بلمح البصر. تيمور لنك الصغير. أمن الخيال أم الواقع أن يترك الجيش دباباته ومواقعة لمجرد نداء من شخص لايعرف كيف يستخدم السلاح؟

نكتة تبدو وقتها من بعض الخيال لكن سيأتي يوم تصدقها أجيال وأجيال.

كانت الفوضى تعم شط العرب كلها. الجنود رموا أسلحتهم وتركوا مواقعهم. خرجت من الجامع وبقي صهري وحده يراقب المولّد الكهربائيّ والسماعة. في الطريق قابلت للمرة الثانية كامل

الرامي. كان متحمسا للنداء. قرب نهاية بستان أصفر على بعد خطوات من الفرقة الحزبية وجدنا الدبابة ماتزال في مكانها والجندي فوقها. اقترب كامل منه وزعق:

-ولك ألم تسع النداء!

رفع الجندي يديه علامة استسلام. هكذا يكون الأبطال في فلم الكابوي. ربما الأستاذ كامل مثلي لايعرف الرمي ولم يكن معنا أي سلاح في تلك اللحظة:

hands up!!

-عمي أنا معكم لاتقتلوني!

-سألته بصوت هاديء:

من اين أنت؟

أجاب برجاء وتوسّل:

-من الموصل!

-هل تريد أن تذهب إلى أهلك حيا!

-أرجوكم أنا لم أفعل شيئا " وأضاف يائسا لكن من دون خوف" احترقت روح الذي جاء بنا هنا! وعقب يؤكد كلامه: أنا مجرد جندي أنفذ الأوامر.

-لاتخف لاتخف هناك فرق بين الجيش والأمن.

ورد الأستاذ كامل ساخرا:

-أنت تعرف الخرفان على أبواب القصابين: الخروف يعلق مع خصيتيه فيعرف الزبائن أن الذبيحة ذكر وليست أنثى لكن ربما تكون أنت أول خروف يعلق من دون خصيتيه على ذلك

العمود! "أشار إلى عمود الكهرباء وواصل" أو هل ترى ذلك النصب السريالي في وسط الفلكة إنه غير مفهوم لأهل التنومة سنضع جثتك مكانه على الأقل يصبح لدينا نصب مفهوم!

وتدخلت أطمئنه:

-نحن لانريد منك شيئا فقط توجه إلى مقر الفرقة ودمِّره بمال لديك من قذائق كل القذائف وجهها وحين تنتهي آخر قذيفة تستطيع أن تغادر إلى أيِّ مكان من دون أن يعترضك أحد!

أصبح مقر الفرقة كالمنخل. الرفاق أبطال القادسية الثانية غادروه منذ أول إعلان لعلع في العشار ويبدو أن الطيران الأمريكي ترك لنا المقر كي نستأثر به فصحت مع سيل القذائف:

-كامل أستاذي العزيز انتصرنا!

كان يرقص داخل ممر الفرقة الحزبية ويهتف ضاحكا:

-ألم أقل لهم إني سوف أدخلها فاتحا!

تحول المشهد إلى فوضى عارمة. جنون فظيع يمس دماء المدينة. فورة لانتقام مسعور يلوح الا آخر له. وأنا أكتشف في نفسي جرأة محمومة. مجاميع توجهت إلى مقر الفرقة الحزبية وأخرى إلى مركز الشرطة تنهب مافيه. فرَّ الرفاق ولم يبق إلا شخصان في دائرة الأمن. تركت مجموعة دائرة البريد المقابلة لمركز الأمن وتعالى من جماعة هائجة صوت:

-عليكم بهما!

كان على مايبدو أحدهما الضابط التكريتي المسؤول والآخر ابن الرجل طيب القلب الذي اعتقل عام ١٩٦٣! الشاب الذي نسي

تاريخ عائلته وانخرط في الأمن. أطلق الرجل النار باتجاه المجموعة فردوا عليه بوابل من رشاشاتهم ولما بلغ اليأس منه منتاه استدار إلى السيارة فجمحت به على حافة الشارع. كان حجم سيارة اللاندروفر وضيق الدرب يمنعانه من الاستدارة الكاملة كي يفلت باتجاه طريق كردلان، فنط محتميا بالجدار وباب السيارة المفتوح ولاذ بالفرار داخل بستان أصفر فكان الرصاص المنهمر يخترق في تلك اللحظة جسد ابن التنومة الخائن!

التنومة فقدت أول ابنائها العاقين أمام عيني!

ربما هو الأول وربما غيره في مكان آخر برصاص مجموعة أخرى.

كنا ننتقم من الأشياء ولانعرف أسرارها. لاندرك كيف نسوق العجلات الواقفة ونحرك الدبابات الجاثمة كالتماسيح على الأرض. تركنا العجلات والمصفحات في أماكنها، ذلك اليوم - أول يوم للانتفاضة -حسمت التنومة أمرها. كانت تتجمع مثل السيل، وفي مشهد واحد بألوان شتى تعود إلى ذاكرتها فتختلط الأشياء، ولفحات البرد الهابة من العشار تبدد مابقي من التوجس في النفوس لتبسط ظلها إلى اقصى الحدود. أبدا لم يعد للخوف موضع في القلوب. هؤلاء نهشونا منذ عام ١٩٦٨. خندق واحد أم خندقان؟. فخ جديد فما أغبى الشيوعيين. السيد النائب الحمل الوديع هناك من يدعي أنه سوف ينقلب معهم في خندقهم والبصير البصير لايرى إلا خندقا واحدا لايسع لحزب آخر.

عجيب أمرنا نحن أهل التنومة كنا نتهم بالعمالة لموسكو عام

١٩٦٣ ثم جاءت موجة البعث عام ١٩٦٨ فاتهمتنا بالعمالة إلى إسرائيل لنتحول بعد الحرب إلى جواسيس خمينيين. أليس من حقنا أن نحب ماركس ولينين وعبد الكريم والخميني وجيفارا. الأسماء كثيرة. أي اسم كان. مثلما يحب المراهقون والمراهقات اسماء عبد الحليم وفريد وأم كلثوم. أنا كنت أحب ممثلي الكابوي. شارلي شابلن يمشي مثل مشيتي، وأشاطر ابن أختي متابعة توم وجيري. الأستاذ كامل كان قبل انقلابه العبثي قوميا ناصريا أحببناه بكلتا حالتيه وكان أقرب الناس إلي أنا تلميذه وأحب معلم من معلمي مدرسة التنومة إلى قلب والدي نحن مثل أي بشر يحبون ويكرهون أم كتب علينا القدر أن نرغب ونهوى وفق هوى الآخرين ونعشق بقلوب غيرنا؟كنت أيتها التنومة تزهين بألف بيت، ناحية تتخايل بطولها الفارع من الزريجي إلى باب سليمان. ناحية تحتضن الحدود الجنوبية. تهيج فيها مرة موسكو وأخرى فلسطين. تعيش بدرويها شوارع العالم بلا عُقَد ثم تصبح بمرور الزمن فضاء. تكبر وتنتشر بيوتها كحبات القمح كالطاعون. كأيّ شيء جميل أو قبيح. كانت مثل دجاجة تنفش ريشها أمام هرٍّ يستنز صغارها وهي تسمع نداءات العشار، وتنصت إلى صرخة الجامع استغربت كثيرا فهذا الصوت لايشبه صوت صهري صبيح الذي تركته في المسجد وخرجت:

الطاغية سقط بشرى لأبناء التنومة.

ثم تغير الصوت:

أكملوا المشوار هو الزحف!

هرولت باتجاه المسجد وفي منتصف الطريق سمعت جلبة وضوضاء ورأيت حشدا من الشباب مدججين بالسلاح. رمقت الدرب الفرعي المفضي إلى منطقة (الكلاب). كنت أسمع صوت نار كثيف. النداءات الصادرة عن المسجد تشدني وقد تركت الرامي وحده يعبث بأوراق الفرقة التي ازدحمت بحشد قدم عبر ضفة النهر عن طريق بيت زعير. وبينما كنت اتخذ طريقي إلى المسجد سمعت صوته يهتف بي:

عبد الله إلى أين أنت ذاهب!

إلى المسجد لأعرف ماذا يجري!

دعك من المسجد ما الذي تجدفيه؟تعال معي!

هل هناك من أمر!

الكلب راجي المزروع أطلق النار على بعض المحتشدين!

مات أحد؟

شخص واحد!

ووضع يده في معصمي مؤكدا:

تعال نر كيف يموت الكلب!

يداك فارغتان ماذا وجدت في مقر الفرقة؟

ضراط!

ليس ثمة من وثائق؟

أقول لك ضراط! وأكد وهو يضع يده على كتفي:

لاشيء دعنا نر كيف يموت أحد الكلاب!

ولعلني لا أكون مغاليا حين أقول إن تلاميذ الأمس الصغار قد

ينسون سني الطفولة وبعض ملامحها فهم قبل كل شيء أنقياء لايبغض بعضهم بعضا قط. قد يكرهون بعاطفة آبائهم وأمهاتهم ويحبون بعواطف أخرى لكنهم سرعان ماينسون فيتشاجرون ويتخاصمون ثم يعودون سريعا إلى اللعب والمرح أما الأمر الذي زادنا نحن زملاء الطفولة وغالبية أهل التتومة كرها ونفورا من المزروع فهو زيارة الرئيس لبيته بداية الحرب العراقية الإيرانية. لم يختر فخامته أي بيت. التتومة التي خسرت الكثير من أبنائها في الحرب يجيء إليها الرئيس فيختار من بين بيوتاتها بيتا بمواصفات خاصة. تجاهل الرئيس أو من نظموا برنامج زيارته بيوتات عريقة كثيرة.

هل جاء الرئيس في زيارة مفاجأة أم شريط آخر غيرشريط القادسية الذي اختل الأزمنة والأمكنة. مكان السوق حيث تباع الخضار والفاكهة واللحم والسمك يصبح مسرحا وشاهدا على الحدث الجديد الأول من نوعه بيت المختار. شيخ بني تميم. شيخ العيدان. عميد بني أسد. ولم يقصد بيت أبي مجبل السني، ولا الحاج محمود عبد الرزاق الذي زوج بناته الأربع لشباب من عوائل شيعية، وربما للحاج عثمان سوابق أيسرها أنه اعتقل في الحملة على الشيوعيين عام ١٩٦٣، بيوتات عريقة تركها سيادته واختار ابن المزروع البدوي الوهابي. تلك الزيارة منحت آل المزروع امتيازا خاصا في شط العرب فحالما ضرع في الحرب مسؤول الفرقة الحزبية اختار البعثيون ابن المزروع مسؤولا للفرقة. ربما فهمنا متأخرين لم اختاره معلم الدين القومي مؤذنا وإماما للصلاة فلم نكن نعي بعد أن فخامة الرئيس الذي يفخر بجده الإمام علي

سوف يسجل أحدث باخرة تمخر شط العرب باسم الوليد ويغير الدعيجي إلى عتبة ومدرسة التنومة إلى المهلب. نسي سيادته اسم جده وباغتنا في بحثه اليائس عن أبي لؤلؤة وقارون فبقيت التنومة تحن لماضيها الأول ولعلها تبحث في أدق التفاصيل لتؤولها بصيغة غير مألوفة.

كانت التنومة في تلك اللحظة تستعيد ذكرياتها القريبة والبعيدة فتتوجه إلى منزل المسؤول مدججة بالسلاح(تمثيلية تجري بإشراف معلمنا القديم الرامي بطلها أحد تلامذته العاقين، وتلميذ آخر أعرج يتبعه. لم يكن ابن المزروع لحظة الانهيار الكبير في مقر الفرقة. ولم يتوار في مكان ما مثل بقية البعثيين الذين آذووا الناس!

كان في داره كأنه يتحدى الجميع!

ولم يكن في نية أيٍّ من الثائرين أن يقتله لولا أنه أطلق الرصاص من على السطح باتجاه الشارع العام فقتل أحد المتظاهرين. كان يمكن أن يبقى ساكنا مستسلما فيتم أسره أو تصحبه جماعة إلى المسجد فيتبرأ من البعث ويعلن توبته غير أن السيف كما يقول المثل سبق العذل. اندفعت مجمايع نحو المنزل. هربت زوجته من الباب هي وحموها وأولاد لها فاعرض عنهم الناس وأقبلت بعض النسوة نحو عائلته يطمئنَّ المرأة وأولاده وأخاه الأصغر. العائلة لاذنب لها. تحدث أكثر من صوت، وسمعت صيحة امرأة:

-أنتم لاذنب لكم.

-هو المجرم!لن نأخذكم بجريرته!

تسلق مسلحون جدار منزل مجاور وأشارت يد أن اتبعوني. صاح مسلح:

أنه ينط من سطوح البيوت باتجاه الرقعة الخراب.

قد يتسلل منها نحو النهر فيختفي بين البساتين!

في لحظات سدت المجاميع المسلحة مداخل محلة " الكلاب" ومخارجها. كدت أضيّع الأستاذ كامل لكني سمعت صوته يحث الناس قربنا مني:

-هذا شخص مسلح لاضمير له قد يطلق النار عليكم!

-احتموا بجدران البيوت من رصاصه.

راح المسلحون ينطّون على السطوح وآخرون يهرولون نحو الخربة خلف البيوت. فاتني أن اشهد حفلة الإعدام لكني سمعت صوت إطلاق نار كثيف داخل الأرض الخربة. قلت لنفسي إنه النمر ذاته فأنا كنت أؤدي دور الظبي. هكذا هو الدور الذي لم يرسم ملامحه إلا معلم مدرستنا الذي اختار النمرّ وأخرجه فشاء القدر له أن يموت في حرب الخليج الأولى، فيأتي الرامي مشرفا بديلا عنه. وعندما وصلنا إلى هناك رأيناه جثة هامدة في بحر من الدماء وأحد المتظاهرين يدعك وجهه بحذائه وآخرون يقذفونه بسيل من البصاق وعرفت موتورا فقد أباه وعمه وثلاثة إخوة بتهم الإسلام واليسار والعداء للحزب يرقص على صدره ويزعق متشفياً دون وعي:

-أديروا وجوهكم فلن أجد مرحاضا أبول فيه غير هذا!

اشحت بوجهي عن المشهد، وآمنت حقا أن صفحة معتمة لطفولتنا تنتهي وفق تلك الطريقة البشعة من العنف. سمعنا عن

أخبار بشعة ونحن صغار. رووا لنا مصرع العائلة المالكة البشع. وأخبار السحل. وقتل اليساريين في الشوارع، وإعدام الزعيم غير أننا لم نمارس القتل بأيدينا. نعم مثلنا دور الوحوش في الغابة ونحن صغار، والآن نتقن فنّ القتل. راجي المزروع الذي مثل دور النمر أصبح ظبيا. ارنبا. ضبعا ينهزم من دار لدار، والغابة العامرة بالأشجار صارت خربة يُقتَل فيها أما أنا تيمورلنك فقد تحولت من ظبي إلى أحد النمور. زمن فيه تنقلب كل الأمور. من لم يكن معنا نقطع لسانه عبارته الشهيرة. ربما تكون ساعة تشف وشماتة. أنا لست بملاك. حقا زمن الملائكة مضى. ترتتي ومجموعة الممثلين تحاصرني. هذه المرة ليست kiss kiss مع الرمي والمسدس والإطلاق. إنها تف تف مع الرمي. الأستاذ سليم بن البلام أول عضو فرقة سقط بداية الحرب حسان الدويك أو الديك وفق فحولته آخر عضو في الفرقة نهشته الحرب. أكلت الحرب أبناء التنومة والآن كتب عليها أن تأكل أبناءها بنفسها. تمزقهم بمخالبها. إنه قدر أعمى وضعها بين انيابه. رئيس الفرقة ابن المزروع صار منخلا برصاص أصدقائه، وأنا أشفق من المنظر إلى حد البكاء. لابد أن تخطر ببالي جثة حسان الدويك معلم العربية والصف الثالث الابتدائي وموضوع اليتيم في العيد لذلك يقفز إلى ذهني اليتيم كلما وقع بصري على ابنه الصغير من زوجته الثالثة. أتذكر مشهدا قديما للموت والفوضى عشته قبل أوانه مع راجي المزروع والدويك وآخرين من طلاب الصف. ظبيّ يتهادى ومجموعة حيوانات كل منها يفخر بقوته، أما الظبي فهو دوري أنا رحت أتهادى بين

الحيوانات أفخر برشاقتي وقفزاتي بين الجبل والصحراء. ربما هي عقدة النقص التي فهمتها متأخرا. تناسى الدويك عرجي واختارني ظبيا. جمال وحسن كحسن التومة ورشاقتها حين يداعبها نسيم شمل العرب أيام الغروب في الصيف. فجأة توقفني أنت. أنت النمر. المعلم حسان الدويك قال لك أنت يا راجي المزروع تؤدي دور النمر. احفظه جيدا. عن ظهر قلب تهاجم الظبي تخاطبه أنا النمر أنا النمر فأين من يدي تفرا أنت الآن ممزق. مثل وحش أصابه شلال رصاص. عين تبكي وأخرى تغازل ترنتي وفي ذاكرة الأهالي أن جثة المزروع ظلت في الخربة فأكلت بعضها الكلاب أما أهله فقد أوتهم إحدى عوائل التومة طوال أيام المحنة، ودفعت الشفقة كامل الرامي فتطوع ودخل الخربة من غير أن يعترضه أحد. سكران أم صاح لايهم. لا أحد يصدق أنه صاح أية ساعة لا يعلمها إلا الله. كان الناس على ظنهم الأول فيه من السكر والعبثية فدفن الجثة على طريقته. الإمام والدفان رجل سكير فأي عقاب ينتظر الميت المقبور. سمعت كغيري أنه جاء بالمسحاة وأهال التراب على الجثة ظانا أن القبر يكون وفق مافعل. لايدري ماذا فعل. ليست هناك من حفرة كما يتهامس الناس. بعد ذلك جاءت كلاب سائبة وأزاحت التراب عنه من جديد، وحين قُمعَت الانتفاضة ذهبت عائلة القتيل إلى مكان دفنه فلم يجدوه فرجعوا إلى الرامي الذي رد عليهم إنه متأكد من دفنه كما هو متأكد من مسحاة الحفر ويديه هاتين أما كيف خرج من القبر فلا علم له به كيف اختفى.

ربما قام كما فعل المسيح. بهذا تهامس الشامتون المقهورون.

ربما نبش العصاة القبر ونقلوا الجثة إلى مكان.

هكذا ظن أهل القتيل وسارت في الناس حكاية أخرى أن الأرض لفظته، وبين هاته وتلك، فهناك من يترحم، ومن يتشفى أو يلعن. موت الرفيق أصبح خرافة ومصرعه صار نكتة ومأساة في الوقت نفسه. ودفع مصرع متظاهر آخر المجموعات المسلحة إلى مداهمة بيوت كبار البعثيين، فطورد أحدهم عند البيوت المجاورة لمدرسة شط العرب حيث أبدى شراسة اليائس قبل مصرعه. لم يُقْتَلْ أحد سوى أربعة جرحى. كنا نحتاج إلى طبيب يعالج جروح المصابين فاستقل أحد الفتيان شاحنة قديمة سارت تبحث عن طبيب فعادت بعدئذ بطبيب بيطري. وتغير الوضع في المسجد. أصبحنا نعاني مشاكل لاقبل لنا بها. لاكهرباء. لاماء. اضطررنا أن نتعاون فنذهب إلى شط العرب نعبيء الماء، أما الجامع فقد تغير الوضع فيه. خرج عن يدي بالكامل قبل أن أتطفل أخيرا فأقوم بمحاولتي الساخرة لاعن تخطيط ولا عن دراسة فيستسلم لندائي لواء كامل ويترك جنوده أسلحتم فيتوارون برمشة عين!

ترنتي قادم. لامحالة قادم. ياترى هل فعلت مثله. لكنه استولى على سلاح الرجل الشرير ثم قتله، وأنا لمّا أزل لاأعرف الرمي. السيارات العسكرية مكدسة في مواضعها. الدبابات. الأسلحة في مقر الحزب. ومركز الشرطة ومواضع الجنود والجيش الشعبي. الناس تنهب، وكامل الرامي يفتش في مقر الفرقة عن كتاب مهم أو وثيقة سرية. صهري جمع بنادق كثيرة ثم جاءنا أناس يطلبون سلاحا فزودناهم مما رزقنا الله. كانت إحدى أختيّ تقف خلف

البوابة تلتقط أية رشاشة من كدس بجانبها وتناولها لأي عابر يدق بابنا يقصد الذهاب للقتال، وعندما بقيتْ في بيتنا أربع رشاشات وجاصرنا الوقت ألقيناها في بالوعة المرحاض. سلاح كثير في كل مكان ونحن لاندري ماذا نفعل ومنا من لايعرف كيف يطلق النار وبأية طريقة تعمل الدبابة. أصبح المسجد القريب من بيتنا مركز أية حركة، كنت أدخله مثل أي غريب. بعضهم يعرفني وآخرون يقع بصري عليهم للمرة الأولى، شاهدت أناسا غادروا البلد منذ سنوات وعادوا يقودون المجامع المنتفضة فيغلقون الشوارع ومداخل الازقة والحارات، ومن الغرباء من راح يدوّن أسماء ويسجّل عناوين. وغطت الحيطان بعد يوم من الانتفاضة صور معممين ورجال دين عراقيين وغير عراقيين ثم انتشرت العدوى إلى البصرة والعشار والخورة والسيبة. كانت هناك أياد تعمل نراها ونحس بها فلا نميزها. مَنْ هؤلاء ولِمَ كل هذه الصور المثيرة للريبة؟ قد تكون فعل البعثيين أنفسهم وربما يكون هو غباؤنا الذي جعلنا لاندري

-بعد أن حملنا السلاح -مانفعل. كنت أرافق من أهل محلتنا أحد الجنود السابقين في قسم المدرعات إلى إحدى الآليات لعل عنده معلومات تنفعنا في أن نشغل بعض البروع المهملة الجاثمة في بستان أصفر. فيروح كلما دخل مدرعة يلعب ببعض أجزائها يفكّ ويركّب ثم يُخرج حفنة من البراغي ويعقّب ساخرا:الروس كرماء زيادة عن الحد كل هذه البراغي فائضة عن الحاجة زائدة لاتضر ولاتنفع ربما لو فتحتم أية دبابة أمريكية أو إنكليزية لما وجدتم مثل هذه الكمية من الفائض فماهو سبب العطل ياترى؟

كان يهز رأسه مؤكدا أنها زائدةوالزيادة كالنقصان، ويدعي أنه لايملك المفكات والأدوات الضرورية كيما يصلح العطل. أصبحنا كلنا في لحظات. في ساعات. حكماء نعرف كل شيء. نفهم في الدروع والكهرباء والنفط ونحمل رشاشات لانعرف كيف نصوِّبها ثم نجد أية حجة نغطي بها فعلتنا. هي المرة الأولى التي نحب أن ننهزم فيها، أنا نفسي ظننت أن إطلاق النار سهل مثلما يفعل ترنتي وكاري كوبر. فهل أدرك شوارسكوف هواجسنا؟ كنا على يقين أنه سيواصل زحفه إلى بغداد، وما هي إلا بضعة أيام وتصبح العاصمة في قبضة النسر.

سيلتقطون صدام حسين مثلما تلتقط البوم جرذا من ذيله.

انتهى يارجال كلّ شيء فلا تخافوا. جنود القادسية يتركون أسلحتهم ويلوذون بالفرار. ياعالم. ياناس. هذه هي أمريكا. أقوى دولة في العالم. لا قادسية ولا إيران ولا تركيا ولا بطيخ.

إذاعة الجامع تبث الأناشيد الحماسية.

التنومة تعج بالحركة.

العطش وشحة الماء.

في المسجد يوزعون الطحين والرز. لجنة تتشكل من بعض الأهالي واللاجئين العائدين من إيران والغرباء تسجل حاجات الناس وتحرض على الثورة. المحافظات جميعها انتفضت. وأنا مثل غيري أذهب إلى الجامع أسأل عن سكر وخبز وطحين. التنومة حبلى بأبنائها العائدين من الحدود الشرقية، وحبلى بالغرباء ومليئة بالحيوية والتعب والصخب الصادر من سماعة المسجد، ومكبِّرات

صوت انطلقت من بيوت وحسينيات وأماكن تعجز الذاكرة عن حصرها، وكانت جدران البيوت المطلّة على الشارع العام تنطق عن هذيان غريب، وصور تثير الشكوك، ولم ينتبه أحد إلى أنّ مابيننا والعشار أصبح مقطوعا تماما منذ أن دمرت ضربة للتحالف جسر التنومة فلم يجرؤ بعدها أحد بالمغامرة حتى خلال سماع الهتاف من مركز العشار وسقوط ساعة سعد. أي جنون يدفعك لأن تستقل زورقا وتغامر بالعبور ومن أين تأتي الزوارق. ظل شط العرب بسيله الصاخب تارة والهادئ تارة أخرى مثل سكين تشطر رقيّة إلى نصفين فيبدو حشوها بحمرة باهتة ولزوجة ذي صديد يزكم الأنف. وكأن كلّ قطعة من مدينتنا تتحرك وفق هواها. ثيران هائجة جريحة لا تقرّ على قرار. سقطت الفرقة الحزبية ومقرّ القضاء، وقتل ضابط الأمن التكريتي، ومن معه، وهلك المزروع وبعض الرفاق وقبع آخرون في بيوتهم ولا أحد يدري ماذا يفعل. أصبحت غريبا أذهب إلى المسجد وحدي أشحذ الطحين والخبز. في الوقت نفسه راحت الصور التي تثير الريبة تنتشر على الجدران. تشطر مثل البكتريا، ومعها تبين للعيان شعارات غريبة.

ولابدّ أن يكون العشار مثلنا بل مركز البصرة. والقرنة وأبي الخصيب. لا أظن أحشاء البصرة التي شطرها شط العرب بموجة الحاد تختلف عنا.

كنّا نسمع أصوات مركز المدينة ولا نقتحم الشط لنصل إليه، ولعلهم سمعوا صوتا من التنومة لكنهم بالتأكيد لم يعوا أنّه صوتي. لقد استفقت على نداء العشار وهبت التنومة على ندائي ولا

أحد يعرف أحدا في هذا الهيجان العارم الذي يبدو لانهاية له.

ثمّ.

فجأة.

بدأت ملامح القصة الغامضة تتكشف للعيان. لاشيء محال.

عدو اليوم صديق الغد، وصديق الامس عدو اليوم.

هكذا من دون أن يتوقع أي أحد ذلك التغير العجيب.

يوقف الجنرال شوارسكوف زحفه.

وتنطق خيمة صفوان عن خبر جديد.

الجنرالات يتصافحون.

الغالب والمغلوب على مائدة واحدة. وفي ساعة ما. أو دقيقة. أم لحظة انفجر البالون وتناثرت أشلاؤه بعيدا فأدركت التنومة نفسها. أدركت أنها كادت تنتحر. أصوات المكبرات التي سمعناها في العشار اختنقت. صمتت ومن كان يقف على ضفة الشطّ أبصر تلك الساعة دبابةً تجثم جنب تمثال السياب وتصوب فوّهتها نحونا. صور اختفت و بقدرة قادر ظهرت بلمح البصر صور كثيرة للرئيس في السوق. على الطرقات. داخل المحلات. واجهة مركز الشرطة، واحتطنا ونحن في بيوتنا فعلقت كل عائلة على الحائط في غرفة الضيافة صورة للرئيس. خلال رمشة عين تلاشت صور وقامت مقامها أخرى!.

صورة واحدة في كل بيت ومبنى وشارع!

كنا مدينة صور وعدنا كذلك!

قتلتك يابنت شط العرب والبساتين صور على الحيطان كما

قال فيلسوف مجنون يدعي أنه عاقل وأودت بك صيحات تعج بها الشوارع: ماكو ولي إلا علي نريد قائد جعفري، فيتوقف الجنرال شوارسكوف لحظة يتأمل ولايبتسم لسخرية القدر. ما عليه إلا أن يظهر بقسمات جادة مثل ملامح لاعب البوكر. ومن حق الرئيس بوش وحده أن يبتسم وهو يرى العراق كله مغطى بشعارات وصور تبعث في نفسه الريبة والخوف. سوف يسقط العراق بيد إيران. أمريكا تقدم بلدا كاملا بملايينه وشعبه وخيراته لقم.

لا أحد يتوقع الخبر.

خيمة صفوان حاضرة، وتعود إذاعة بغداد للحماس والتلويح:

شكرا لكم أيها الجنود الابطال لقد دافعتم عن الرئيس وحققتم هدف أم المعارك!

هكذا كانت. مثلما بدأتها لعبة من الجامع المجاور لمنزلنا. بدأت لعبة أخرى اشد قسوة من الأولى وبهذا الشكل انقلبت الموازين.

هل نحن في حلم أم حقيقة؟ اليوم الذي أملنا أن يُلتقط الفأر فيه من ذيله فيُحلّق به بعيدا انمحى من الذاكرة. أقصى مانأمله أن جيش التحالف سيلقي القبض على فخامته كما فعل مع الرئيس البنمي نورييغا. هناك سيقولون له شكرا انتهى دورك. أنت الآن تعيش معنا لك هذا البيت الواسع الكبير. ساحة تنس. حوض سباحة أثاث. ملايينك كما هي في بنوك سويسرا. ماكنا ياصاحب الفخامة لنجرؤ على العودة إلى الخليج لولا جهودك. بفضلك حملت بواخر البدو أعلامنا وبجهودك جئنا ومعنا جاءت تبارك جيوش

الإنكليز والفرنسيين والعرب أيضا.

ستكون محترما هنا أكثر من صاحب الوجه الأناناس نوريغا.

لكن لِمَ توقف الجنرال شوارسكوف!

بغداد كما خيّل للعالم بدت غريبة الأطوار. علاء الدين مشغول بملاحقة اللصوص، السندباد يصارع الموج فلا ينجو هذه المرة. المغول على الأبواب، أما الخليفة فقد كان يعد صناديق الذهب ويستنشق قوارير العطور. فمن يصدق أن شوارسكوف تأمّل قليلا ثم أوقف الزحف. أتراه خشي من صورة على الجدار أم بعث في نفسه الريبة والشكّ شعار؟ذهول. وجوم. يأس من جديد. سيعود الرفاق أكثر شراسة. وسوف تتعرض التنومة إلى حملة إبادة أخرى. بيتنا يغلي. نفتح أنا وصهري غطاء البالوعة فنرمي فيه البنادق. آخر جيب بقي للمقاومة. التنومة من جديد تبحث عن الموت. ولكي نصدق أننا لسنا في كابوس ثقيل نجد طائرات الهليكوبتر تحلق فوق البيوت، ويهز سياج حديقة بيت الجيران شيء ما فأصعد السطح مستطلعا. كان سائق إحدى الدبابات المرابطة عند مدرج المعبر الشعبي في ضفة العشار يطلق النار على أية حركة تصدر عن حارتنا فأصابت إحدى قذائفه سياج الجيران. تحققت النبؤة المشؤومة. سقطت جميع جيوب المقاومة في البصرة، وبدأت المجازر، أصبح الجيش يباشر ببناء جسر عسكري يربط بيننا والعشار.

الانتفاضة اندحرت. فأين المفر؟

انتهى الحلم الجميل!

وماهو إلا سواد الليل والجيش على الابواب!

في هذه الاثناء احتشدت سيارات قادمة من جهة الشرق، وجاء من يسحب الدروع والشاحنات. كلّ ما هوجاثم على الأرض يمكن أن يتحرك باتجاه الحدود. قبل حلول الظلام بقليل عرض علي بعض الشباب وعوائل محلتنا اللجوء معهم إلى إيران!

الهرب بعيدا خلف الحدود إلى حيث الأمان.

عشرات العوائل ممن شاركت في العنف أو لم تشارك استعدت للرحيل.

طاعون جارف يربض أمام الضفة الشرقية بين الساحل ولجنة التمور وتمثال السياب. مثلما احتشدت الصور من قبل راحت الدبابات تتكاثر. آليات تهرب من التنومة وأخرى تجتاز الشطّ إليها. حشود قادمة من عمق العشار. الليلة أو غدا ينطّ غول من أعماق الظلام فيقضم بأنيابه الحادة كلّ مايجده في طريقه. ليلة من الرعب والكوابيس والموت المنتظر. نحن أمام عرض مغرٍ. هل نختار الموت. وهؤلاء الرفاق المختفون ماذا يفعلون بعائلتنا حين يخرجون من جحورهم. كم منهم بقي حيّا. بعد مضرع ابن المزروع أثبتت التنومة أنها لاترحم نخيلها وماءها أو أيّا من أبنائها. العين بالعين والسن بالسن والباديء أظلم. صحيح أن عائلتنا أعلنت من الجامع أول شرارة للتمرد لكننا لم نقتل أحدا فأين نذهب ومالنا وإيران. من يعرفنا هناك، وكيف نعيش:

لمست ليونة عند صهري وأختي أما أختي الكبرى فقد حسمت الأمر بقولها:

لا أبدا لن نغادر!

جاء قرارها مفاجئا للجميع. هل اختارت الموت؟أعرفها عنيدة. صعب عليَّ حقا أن أكسر كلامها فهي الآن بمثابة أمٍّ لي. حكمت على نفسي بالموت أمامها ، فقلت:

الرأي رأيك!

وإذ سمع صهري جوابي التفت إلى زوجته:

أنا أسألها أتحب أن تبقى؟

فردت بإصرار ممزوج بالخوف والقلق والرعب:

لنبق هنا!

أين ذهب بقية الرجال؟هل حقا فرت معظم العوائل إلى إيران؟ ومن نحن حتى نقف بوجه تيار جارف من الموت والجنون. الجميع غادر من شارك في الانتفاضة ومن وقف متفرجا. مكبرات صوت صاحت: أيها الناس فروا من الطاعون. في الجو طائرات الهيليكوبتر، وعند الضفة شرق النهر دبابات تتأهب للانقضاض. الحابل يختلط بالنابل. أناس تستغل وجود شاحنات الجيش المركونة في البساتين فتنطلق بها نحو الشرق. لايمكن أن يصدق أحد أن المشهد يمكن أن ينقلب إلى فاجعة كبرى تجتث الناس من مدينتهم وهناك عوائل مثلنا تغامر وتبقى في مكانها بانتظار الموت أو الحياة.

مغامرة محفوفة بالخطر إن بقينا.

ومغامرة حين نرحل!

وأنا مخير بين الموت أو الفرار، مالم يكن مألوفا من قبل أصبح مقبولا ، فيستفزني صوت أختي الكبرى:

أنتم أحرار إذا أردتم الذهاب أما أنا فسأبقى هنا!

هذا قراركم الأخير؟

اندفع صهري:

أنا أظل مع مشى وأمه، إما إذا أردت أنت الرحيل فلا أحد يعترضك!

استسلمت أخيرا:

إذاً سنبقى الخير فيما اختاره الله!

لم ننم تلك الليلة. أول ردة فعل قمت بها أني حلقت على ضوء الفانوس ذقني الطويلة. كذلك فعل صبيح. كنت أحاول أن أبعد أية شبهة عني، وربما بدا صهري خلال فترة الانتفاضة أكثر حكمة مني. جمع ما معنا من بنادق وخطرت له فكرة التخلص منها في البالوعة، ولم يكثر التجوال في الأزقة والطرقات مثلما كنت أفعل.

وما أن انبلج الفجر حتى حلت الكارثة. .

مشهد أبعد من أن تدركه حدود العقل. أين كانت طائرات الهليكوبتر. من أين حلّقت؟. أسراب تسد نافذة الفضاء كالنمل. أية طائرة فاتكة هذه. يعاسيب كبيرة تحدق بنا من السماء. مضى زمن الطفولة أيام كنا نطارد اليعاسيب الشبيهة بطائرات الموت. تبعناها في الحقول والبساتين. للهو فقط أو نصطادها غرض أن نجعلها طعما للسمك. حشرات حديد تراقب الأرض، ولم يعد ترنتي يركب حصانه وينفذ حكم الموت من مسدسه بالهنود الحمر وهو يصرخ:

Kiss Kiss

وليس هناك من طفل شرس مثل باسم سلام يمسك اليعسوب فيضع في مؤخرته قشة طويلة ثم يطلقه متلذذا بمراقبته وهو يواصل الطيران:

حرام ياولد حرام

إذا رأيتك تفعل ذلك مرة أخرى كسرت رأسك!

لكن الهيليكوبتر لاتعرف الحرام. كانت تقف في الهواء على مؤخراتها أو رؤوسها ولا تكف عن الهدير. وهذه الدبابات والمدرعات التي تحاصر المدينة وتتجول في شوارعها. الموت يصل مع الصباح بأشكال مختلفة. بعض الثائرين رفضوا الهرب إلى إيران أو الاستسلام فدخلوا المعركة خاسرين والنتيجة بقيت جثثهم ملقاة في الشوارع والحارات الضيقة. التنومة قبر كئيب فيه الأحياء والأموات. منطقة حرب. طائرات. مدرعات. قادة عسكريون، ولماً تزل ملصقة على الجدران صور الصدر والخميني والخوئي. تلك المدينة حفرت قبرها بيديها فهناك ألف شاهد وشاهد على إدانتها. الفوغاء. الهمج الرعاع. الفوضويون. راحت فصائل الجيش تقتحم البيوت بيتا بيتا. يوقفون النساء والشباب ثم يتوجهون بنا نحو مقر الفرقة الحزبية. إعدام. لانشك في النهاية المحتومة. ألم يكن الأجدر بنا أن نهرب إلى إيران. ربما تحاشيت النظر في عيني أختي الكبرى. تكدسنا أمام مقر الفرقة الحزبية، فأدركت -على الرغم من كثرتنا - أن معظم العوائل هربت وأن التنومة الآن في هذه اللحظة بالذات - لحظة المواجهة - أصبحت خاوية من

أحشائها. تقدم ضابط صارم الملامح حاد النظرات نحو صهري وصرخ:

أنت من الغوغاء قف هنا!

سيدي أنا كنت في الجيش أقاتل إيران ست سنوات!

اسكت غوغاء. إعدام كلكم إعدام!

كانت الفوضى تجثم بشكلها الغريب على المكان فترسم له ملامح متوحشة مخيفة: مئات الجنود يحيطون بعوائل مرعوبة. صبيان يصرخون. مرضعات يدعين أن أطفالهن جوعى. نحيب عجائز. اختلطت الشرطة بالجيش والقوات الخاصة مع المخابرات ولعلني لمحت عائلة المزروع تقف مع العائلة التي حمتها ، وشعرت بارتياح حين نادى مناد من المقرّ على الضابط الشرس فدلف إلى الداخل عندئذ اغتنم صهري فرصة غياب الضابط فتحرك من مكانه واندس بين النساء والأطفال ثم متسللا بعد لحظات إلى مجموعتنا.

أكثر من ثلاث ساعات لاكلام. لاأوامر. لانعلم ماذا نفعل سوى صراخ الأطفال من الخوف أو الجوع ورجاء نسوة ذهب عبثا ونحيب عجائز سيق بهن قسرا إلى المكان. إن كنا نحن مجرمين فما ذنب هؤلاء النسوة والعجائز. قد تكون إحداهن أم أحد الحزبيين العائدين من أوكارهم لكن الشجاعة لاتواتي أحدا منهم في أن يرجو القادة العسكريين الذين أصبح مصيرنا بأيديهم وحدهم بعد إعلان حالة الطوارىء.

الموت أو النجاة.

وهناك حبل آخر للنجاة يجعلنا نتنفس الحياة من جديد خلال لحظة هربت من الزمن الساكن العنيف الذي ارتسم على وجوه الضابط والجنود ، تلك الدقائق رحت أتمعن بوجه مثنى الصغير وهو يقبض على ثوب أمه ويلصق رأسه بجسدها ، وكأننا مُنحنا لحظات أخرى للعيش. كانت حشود الجيش تتجه بنا إلى الدور مرة أخرى. الأمر العسكري ألزمنا بعدم المغادرة. حظر التجول. ابقوا في بيوتكم ولا يغادرنَّ أحد ، ولعلني أبصرت كفيري جثة على الرصيف لأي إنسان ما فتغيب الجرأة عني أن أسأل من هو كي لاتلحقني شبهة التمرد فلا أدري أكان القتيل من بقايا المقاومة أم نفذ فيه حكم الإعدام خلال لَمِّ الحشد الباقي من العوائل بعد سقوط التنومة!

أطلقوا سراحنا في بيوتنا.

حالةُ تَشفٍّ وتعذيب، مثلما يتلذذ قط حين يترك الفأر طليقا بضع لحظات. كنا نسمع بين حين وآخر أصوات إطلاق نار فنشك أنها إعدامات مرتجلة أو نظنها مقاومة تقاتل حدَّ اليأس بين بقايا النخيل والبساتين إلى آخر طلقة.

والجيش كذئب جريح مسعور.

بقينا ليلتنا الثانية مرعوبين، توقعت أن يداهمنا جنود أو عناصر مخابرات في أية لحظة. أعرض النوم عن عيني. كنا خائفين من أن نشعل أي مصباح زيتي فنتعرض لرصد طائرات الهيليكوبتر التي بقيت تحوم في سماء التنومة طوال الليل. وفي مايشبه الإغفاءة هوَّمت عليَّ صورة أبي. ركضت خلفه. صحت به أن ينتظر فأذهب معه.

أعرض عن طلبي، رمى منشورات إليّ فالتقطت واحدا منها. لم تكن القراءة في بالي لحظتها إذ حاولت أن أجمع من الأوراق ماأستطيع حمله فعجزت. صحت به:

ألم تزجرونا حين كنا نضع العصي في أدبار اليعاسيب، وهاهي تقف الآن في الهواء على أدبارها وتتطلع فينا بغضب.

لم يجبني عندئذ صرخت:

هات يدك سأجيء معك.

فالتفت إليّ وقال دون أن يتوقف:

إرجع إلى أخواتك.

فصحوت وفي نفسي شيء من الرعب وبعض الانشراح. وفي تهويمة أخرى رأيت أمي بهالة وثياب بيضاء. عقبات كثيرة بيني وبينها. جبال. غابات. أشجار. نخيل. وحوض سباحة ينبع من بيتنا القديم. كنت في حوض سباحة يصل إلى وسطي:

أين نحن ياأمي!

في نهر جاسم.

قريتنا الصغيرة انقطعت عني منذ بداية الحرب العراقية الإيرانية. شحب لونها. تلاشت وتناثرت. النهر المالح طمسته الدبابات والعجلات وانقلبت القرية في ساعات إلى صحراء واسعة تشخص فوقها جذوع النخل كأيٍّ من جنّيات متوحشات:

هات يدك. هات يدك!

مدت يدها إليّ انتشلتني من البركة وأفلتت يدها من يدي:

كلا إبق مع أخواتك!

آت معك.؟ أين أنت ذاهبة؟

إلى أبيك.

كان معي هنا قبل قليل!

كانت أمي تتحول إلى واحدة من حكايات كثيرة قصتها عليَّ. كان يا ما كان. الملك فلان. الأمير الفلاني. بنت السلطان. أبطال من دون أسماء. ونساء أميرات وساحرات. كلنا سوف نصبح ذات يوم في خبر كان مثلهم نكون قصصا تروى لمن جاء بعدنا. فهل جاءت من إحدى الحكايات؟وكيف عادت إليها ذاكرة افترستها الشيخوخة قبل الأوان. وجدتها تتذكّر كل القصص والحوادث. في الصباح أوّلت أختي حلمي. قالت والجدّ يلوح على محياها:

ستعيش مادام أبي أعطاك ولو أخذ منك شيئا لجاء ذلك بكارثة.

وعقبت أختي الصغرى بانشراح:

أمي وأبي جاءا يطمئنان علينا ، فالموتى يقدِّمون البشارة حين يعطون والحزن حين يأخذون!

علق زوجها مؤكدا تأويل الحلم:

الموتى معنا الرحمة لهم والباقي على الله.

ثم عادت أختي للكلام:

ألف حمد لك يارب على عطائك!

فقلت ولما تزل آثار الحلمين تلوحان على وجهي:

لم أغف سوى تهويمة زارني فيها الموتى!!

قالت أختي الكبيرة:

كيف نام وصوت البارود من حولنا وفرقعة السلاح والطيران!

التفت لابن أختي:

هل نمت؟

تجاهل جوابي فردّ أبوه:

كان في سابع حلم!

هل نطرد الموت بتأويل الأحلام وهذا الصبح يهبط علينا كالنسور العطشى للجثث، وربما نتحفّظ في كلامنا أمام طفل قد يفلت لسانه بكلمة تصدر عنا فلا نفعل إلا الغمز بيننا أو الإشارة والتلميح:

لاأدري لِمَ جاءت أمي إلى البحيرة أخرجتني منها وتركتني!

أختي الصغرى:

بحر دم نجاك الله منه ولم ترد أن تأخذك معها إلى عالم الموتى فتركتك وذهبت!

وماكادت تتم عبارتها حتى اهتزت بوابة البيت لركلات مسعورة. عادت الذئاب من جديد. ضابط يقف عند البوابة. مجموعة. أربعة جنود ورائد. تجمعنا في غرفة الضيافة. عبث الرائد بمكتبة أخي، وسألني بلهجة احتقار:

ماهذه الكتب؟

كتب فيزياء منذ سنوات الجامعة تعود لأخي الأستاذ في إحدى الجامعات الألمانية!

فبرم شفتيه متأملا:

لِمَ شاركتم مع الغوغاء!

رجوته: لَمْ نخرج قط.

أختي الكبرى: كنا خائفين.

بقي صهري ساكتا، وقالت أختي:

لايخرج في ذاك الظرف إلا مجنون!

وأنت؟أنت؟ "قالها موجها كلامه لصهري" أخوه؟

أنا صهره؟

ماذا تفعل؟

أنا أنهيت خدمة العلم في القادسية وأسكن معهم الآن حالما أجد عملا وبيتا.

إنه زوجي!

أسكتي أنت وإلا قطعت لسانك!

أشار إلى الجنود: فتشوا البيت "والتفت إلينا":

أي دليل يثبت تورطكم مع الغوغاء يمنحني الحق في أن أعدمكم!

بقينا في غرفة الضيوف مع أحد الجنود. راح يعبث بالمكتبة، ويتصفح بعض الأوراق. لمحت الضابط الواقف عند البوابة يلتفت بين الحين والآخر إلى الغرفة المطلة على الشارع الفرعي ثم يتطلع إلى الشارع العام بعد لحظات عاد الجنود وفي يد أحدهم حزمة من ظروف فارغة لرشاشة كلاشنكوف. قال الجندي بلهجة غريبة:

سيدي هذا دليل على أن العائلة مع الغوغاء!

في هذه اللحظة انطلقت أختي الصغرى متحمسة مثل لبوة

جريحة ترد الوحوش عن صغارها:

أهذا عقلك هو الذي دلّك مثل هذا؟ الدولة حملتك مسؤولية أرواح ناس.

فقال الرائد مقاطعا:

وماهذه الظروف الفارغة؟ إليست دليلا؟

هذا الطفل جمعها ليلعب بها. طفل محروم من الألعاب بسبب الحصار. يا أخي أنت صاحب أطفال الله يستر عائلتك. ماذا يفعل الطفل وليس لديه لعبة؟رأى ظروف إطلاقات فارغة من أيام القادسية وقد تكون من مخلفات الجيش الشعبي فجمعها يلعب بها!

هز الضابط رأسه شبه مقتنع عندئذ انزاح هم ثقيل عن صدورنا. كدنا نذهب في داهية سوداء بسبب سهو صهري الذي أطلق النار من على السطح، وحمدت الله على أن أختي اندفعت تحمي العائلة بحجتها الدامغة. نحن أمام محاكمات عسكرية فورية من صلاحيات الضابط فيها أن يحكم بالإعدام من غير أن يُسأل عما فعل. كانت هناك في بعض الأزقة والشارع العام جثث جديدة غير التي رأيتها البارحة لشباب حاولوا التسلل إلى العشار. إنه الموت بعينه. لم أنتبه إلى قدوم الضابط الذي كان يرابط عند البوابة. دخل غرفة الضيافة وأدى التحية العسكرية. ويبدو أن الرائد اختصر عذابا كان يمكن أن يمتد ساعات وساعات:

التتومة منطقة عسكرية، لاأحد يدخلها إلا بعد رفع الحظر لديكم اربع وعشرون ساعة تنتهي مساء الغد أي كائن مهما كان

طفل. عجوز. رجل. امرأة. يعدم من غير سؤال!

وعض على شفتيه مؤكدا:

سوف يعدم مهما كان!

يومان فقط! ومن حسن الحظ أن أختي ابتاعت بيتا في الحي الجامعي بباب الزبير. لما يكتمل بعد لكنه كان يكفينا ولاأظن أن إقامتنا فيه سوف تكون مؤقتة بل أدركنا نحن الثلاثة أن لنا بيتا في التنومة لاتشدّنا إليه سوى ذكريات تثير الشجون والمرارة ولا نستبعد أن يأتي يوم نبيعه فيه فلا نقدم إلى شط العرب إلا خلال المناسبات!

سنكون ضيوفا على حارتنا لبضع ساعات!

نحضر فقط مهنئين بعرس أو معزين بوفاة.

هكذا تختصر التنومة بمناسبتين بعد كل تلك السنين الطويلة والمعاناة.

زغرودة وصرخة. وليس بينهما أوبعدهما إلا فراغ هائل يبتلع الناس.

ذلك اليوم نصحتنا أختي الكبيرة أن نغادر جميعا فتبقى هي في البيت تبحث عن شاحنة تنقل الأثاث عبر جسر المعقل إلى منطقة حي الجامعة.

هل نتركك وحدك؟

قد تعدمان إذا بقيتما؟

هل أبقى معك؟

سألت أختي الصغرى.

لا طفلك أحق بك!

امتعضت قليلا فها هي أمامها أكداس من الأثاث والمستلزمات والكتب. كنت أقول لأمي وأختيّ أن هذه الكتب تجاوزها الزمن. يمكن أن نتخلص منها. لكن والدتي ظنتها تفيد أخي حين يعود وازدادت يقينا أنها تنفعه حين أوغلت ذاكرتها في عالم النسيان لكن بقاءنا نحن – الرجال – يثير الفضول والتقمة على البيت. لو رجعت قلول المخابرات والأمن والبعثيين الفارين لزاد الأمر سوءا. لنغادر بأي أسلوب كان. الوصول إلى الضفة الأخرى لم يك سهلا. الجسر العسكري الجاثم بين التنومة والعشار خُصِّصَ للجيش، وكم حاولت أختي أن تتخذ من الصغير حجة فتجعل قلوب الحراس تلين ليسمحوا للنساء بالمرور وفعلت مثلها نسوة أخريات. كان علينا أن ننتظر ساعات وساعات على الساحل. لا أكثر من ثلاثة زوارق تنقل أهالي التنومة إلى العشّار. وبين حين وآخر نسمع صوت إطلاق نار، فندرك أن هناك بعض جيوب للمقاومة مازالت تكمن في الأحراج وبساتين النخيل. مشاهد مرعبة لايتخيلها إلا من عايشها، وقبل أن نستقل إحدى الزوارق بدقائق شاهدنا سيارة جيب تتوقف عند الجسر فيترجل منها جندي ويقول لصاحبه المرابط عند الجسر بصوت عال:

طاردناهم. الكلاب. قتلناهم قبل أن يفرّوا خارج الحدود!

كم كانوا!

خمسة عشر من عملاء إيران!

ربما لم يكن الخبر صحيحا. قد ينوي إشاعة الرعب في

نفوسنا. أطلقت إحدى النساء زغرودة، وصاحت:

الله ينصركم!

نفاق أم هزيمة أم ضعف؟التنومة في تلك اللحظة – لحظة الهجرة – تآكلت. التهمت نفسها. كذّبتْ وصدقتْ، رأيت فقط الفيلسوف. وصاحب الشاحنة وبعضا ممن أتذكر أو ممن لاأعرف أسماءهم. كان كامل الرامي، مع الغائبين، ولعله يحاجج الضابط أو إذا اضطر يعود إلى سكره. أما الخوف نفسه والقرف فقد جعلاني لا آبه لشوارع قطعتها سيارة الأجرة. أيّ شارع ياترى انطلق منه صوت جعلني أهب هائجا إلى الجامع. مقام الأمير؟ الكورنيش؟ تمثال السياب؟! من أيٍّ مكانٍ جاءت تلك الأصوات؟ لم ينج منها شارع الوطن ولا ساحلا شط العشّار أو دوار المحافظة. لزمنا جميعا الصمت. السائق بدا أشبه بتمثال خلف المحرك. تخذت مكاني جنبه، وزاغ بصري عن مشاهد فارقتها الحياة. آثار رصاص على بعض الحيطان وخراب لا يدرك أحد أهو من ضربات التحالف أم حرب الشوارع،. بدت المدينة التي انقطعتُ عنها خلال ايام المحنة الأربعين جثّة مشوهة تفوح منها رائحة كريهة، وينشق عن بطنها دود يتلوّى، ويحط على وجه معفّر بالدم كدس من الذباب المسعور، وعلى بُعدٍ من الجيف حيث الحيطان المرهقة القديمة في كل طريقٍ نجتازه تشخص صورة الرئيس ذي النظرة الحادة التي لم تخفِ ابتسامته العريضة، وربما انتشلني توقف السيارة عند حاجز ما فأرى جنودا يحدّقون بنا مثل نسور تعف عن فرائسها. كلما قابلنا حاجز، اجتاحتنا هواجس. فيخيّل إلينا أن الرحلة تطول وقد

لا تنتهي بيوم أو يومين. ومن حسن الحظ أن حراس الحواجز الجنود لم يبالغوا في تفتيش العابرين النازحين إلى المدينة، فوق ذلك كانت رجلي تشفع لي فلا أحد يصدق أن ذا العاهة يحمل ذات يوم بندقية لا يعرف كيف يصوبها.

وصلنا متعبين إلى منزلنا في الحي الجامعي، استقبلنا من بعض الأثاث البسيط الذي جلبناه معنا. كان الخوف ينسينا التعب والإرهاق، وبدا الصغير مثلي عازفا عن الكلام. كعاب كداويد، وأبوه يقول لي لا تعلمه الكلام البذيء غير أنه مازال هادئا منذ أن حشرنا الضباط أمام مقر الفرقة، لا تثيره كلمات محظورة لا يفقه معناها. علامات الرضا تلاشت من وجهه. فلزم الصمت ثم غط في سبات عميق.

لم يكن البيت مكتملا. غرفتان ومشتمل واسع ينقصه الأثاث. المكان بارد في الليل. مازلنا في الربيع. صحراء الزبير والرمل يثلج صقيعا يكاد يكون أقرب إلى لسع الدبابير. وقتها لم يكن المكان اكتظ بالبيوت بعد. لاح مفتوحاً لبرد الليل النازل على العظام كالسكاكين. وتطلعت من النافذة باتجاه الحديقة الأمامية فتراءت لي حية تدب من جهة البوابة، وتخيلت أني رأيت عقربا أسفل الجدار يرفع زبانته. ليل عقارب وأفاع. أرض رمل وجدت فيها الزواحف والحشرات مأواها. أخفيت الأمر عن أختي. بيت شبه مهجور لم يكتمل وسوف تزيد معاناتنا إلى أن نبيع بيتنا في التنومة فنتمكن من أتمام بنائه. كنا نجد صعوبة في الحصول على ماء الشرب وليس لدينا سوى حفنة من الرز وخبز جلبناه معنا.

وكانت أختي تجمع الحطب لتطبخ به. كل شيء معطل. لاماء. لاكهرباء، ونحن خائفون أن نخرج في الحارة لكي لانثير الشبهات. كانت البصرة هادئة والجيش يحكم قبضته على الحارات والأزقة وظلت الطائرات السمتية تحوم في السماء. لم نعد نسمع أي صوت لإطلاق النار كما اعتدنا عليه في التنومة. الجنود هادؤون بوجوه مألوفة. وقسمات ليست فظة حتى فكرت أن أطلب من طاقم مدرعة ترابط في مدخل شارعنا بعض الخبز أو الماء إذا ما أعيتني الحيلة. والحق لم نكن لنخاف من الجيش قدر خشيتنا من المخابرات والجيش الشعبي والأمن. عصر ذلك اليوم وصلت أختي بشاحنة يقودها رجل في الستين من عمره. كان معها بعض الأثاث. حقا تنفسنا الصعداء إذ رأيناها أمامنا دون أن يأخذ منها التعب والإرهاق. أنا نفسي عجبت كيف حلت بجسدها قوة هائلة فتمكنت بمساعدة ذلك الشيخ السائق من حمل أثاث ثقيل. مكتبة أخي.. سرير نوم .. فراش.. بعض الماء. رز. سكر. أباريق. أقداح. أكثر من نصف الأثاث. وحالما انتهينا من تفريغ الشاحنة عادت من جديد. وهي تؤكد أنها سترجع قبل المساء مع بقية الأثاث. كانت ترد على أم مثنى التي اندفعت لترافقها هذه المرة تاركة ابنها معنا ستؤكد أنها تستطيع أن تفعل وحدها مالا يقدر عليه الكثير من الرجال!

لم تكن مهمة الانتقال بالهينة قط. عشرات الحواجز في الطريق توقف الشاحنة القادمة من الشمال. حواجز جيش في التنومة. جسر المعقل. العشار. طريق الجمهورية. كل لحظة يمثل فيها الموت

بشكل ما. كان على أختي أن تجلب ما بقي من أثاث في بيت التنومة قبل حلول الظلام وحظر التجول. أكثر ما واجهناه من إزعاج ولونة أختي الصغرى ولومها لنا. هل نحن رجال؟ وصرخت بهستيرية:

إن لم تعد أختي تركت مثلى عندكم وخرجت!

فاندفعت لزجرها:

أسكتي زوجتك وإلا كتمت أنا اسمها!

فقال بأعصاب هادئة:

أين تخرجين وحواجز الجيش تملأ الطرقات وحظر التجول ساري المفعول في الليل. قد يطلقون عليك النار!

فعدت أطمئنها كأني متأكد من صحة ادعائي:

أختك ذكية أظنها أدركت أن الوقت ضايقها فقررت أن تبيت في التنومة هذه الليلة ثم تعود غدا مع الأثاث!

لم تنقطع عن العويل أو اللوم. كانت قلقة من حدوث مكروه فلذت أخيرا بالسكوت والتجاهل. زادني راحة أن حواجز التفتيش الكبيرة تتبع الجيش أمّا دور المخابرات فلم يحن بعد... حقا كان بعض الجنود يتحدثون لهجات غريبة عن لهجة الجنوب غير أنهم لايبدون أي انتقام، ولايضمرون شرا للمدنيين. كيف لنا أن نعرف أن أختي الكبرى وصلت التنومة وقت العصر، وخاف سائق الشاحنة من الحواجز فاقترح عليها أن يذهب إلى بيته على أن يعود إليها في الغد. كان عند وعده فبعد الظهر حضرت الشاحنة ومعها بقية الأثاث.

أخيرا تنفسنا الصعداء.

كمن ولد من جديد!

أختي وصلت سالمة مع أثاث البيت!!

إنها لحظات الخيبة واليأس تأتي دائما متأخرة فتدفعنا لأن نسأل أنفسنا سؤالا أقرب إلى الإدانة:

لِمَ جرى كل ذلك؟

إذا كانت التنومة واجهت القدر مرغمة في حرب الخليج الأولى فلم فعلنا ذلك؟

لأية غاية خرجنا؟

أنا ذهبت إلى المسجد. ولولم يكن المسجد مجاورا لبيتنا لما خرجت. ولعل شخصا آخر غيري يفعل ذلك فيذيع نداء شبيها بندائي. يجعل لواء مشاة يترك موقعه، ويحفز مجموعة على أن تداهم مركز الشرطة، وفريقا يقتحم دائرة السجل المدنيّ. وجماعة تدخل مقر الفرقة الحزبية وحشودا تطارد بعثيين قتلة. كنت أرى في نفسي رجل التنومة الحق. ولاأغالي حين أعمم شعوري على الآخرين فلا أخص بذلك نفسي وحدي فكلّ واحد منا نحن الذين انتفضنا وجد في نفسه الرجل الأول ورجل التنومة المنقذ. في لحظة الغشاوة تلك غاب عن أعيننا أن نرسم صورة للمستقبل. جل تفكيرنا أن الطاغية انتهى، وحزب البعث مات، شرب السم على الحدود مع إيران وانتحر في الكويت!

أصبح فأرا داخل مصيدة.

في حين أن العقلاء والمجانين يدركون أنها معركة للملاكمة

بين عملاق قوي ضخم ورجل أعمى. شخص لايدري أين يقف ولايعلم أن هناك طائرات تترصده ودبابات تركها سوف يأتي إليها جيش منهزم يوجهها صوبه!

هل غاب عن ذهني أن الرئيس بوش ومارغريت تاتشر وشوارسكوف وجميع قادة الغرب كانوا يخدعوننا؟

المهم ألا يقع العراق فريسة لإيران بأي ثمن كان!

كل شيء محتمل لكني آخر المطاف رحلت عن التنومة خائفا أتوقع أن يصطادني الأمن في أية ساعة. ثم. أكل هؤلاء الذين انتفضوا هربوا؟ هل يعترف أحدهم؟ أيّة لحظة يمكن أن يشهد بعثيٌ هارب نجا من الموت أنك كنت مع الفوغاء فينفذ فيك حكم الإعدام وسط الشارع. الجيش عاد وهم لايعرفوننا والحزبيون مازالوا يتقاطرون من أوكارهم، والغرباء الذين جاؤوا وغادروا، ومن دونّوا أسماء بحجة توزيع المعونات ألم يكن من بينهم عملاء. كنا نلتفت إلى أنفسنا خوفا من موت محدق بنا. فيما بعد التفتنا إلى العالم فأدركنا أن اللعنة ظلت تلاحقنا، فاقترفت جرائم نحن براء منها. رأينا مجرما اعترف أنه اغتصب إحدى الفتيات. وكان هناك الكيمياوي يقيّد شابا منهكين فيهوى عليهم ركلا وجلدا. غرائب جرت في أثناء هياجنا لم تكن لنا فيها يدٌ. من اغتصب النساء؟ من لصق الصور على الحيطان؟ من سرق البيوت ونهب الدوائر؟ حين ينتهي الجيش من مهمته سوف تفتح ملفات وتستدعى أسماء وتُتّهم شخصيات فتباشر الفرق عملها وتستفيق المخابرات من غشيتها. كل شيء محتمل. لقد ابتعدنا خطوة عن الموت القريب منا

أو لأكن دقيقا فأقول إن الموت نفسه ابتعد عنا. تجاهلَنا بعض الوقت، ولم يغفل عنا فنحن أنفسنا اخترنا أن نقرعَ بابَه ذات يوم بجنونٍ عن غيرِ علمٍ بما يحمله لنا القدر من مفاجآت والحق إننا كنا مثل مشاهدي فلم سينمائي يصفقون جميعهم عن غير وعي في وقت واحد ويكفون عن التصفيق خلال لحظة واحدة.

هكذا انتفضنا ثم انتهينا.

وقتها لم يفكر أيّ منا قطّ أنه يمكن أن يقف على هاوية الهلاك!

لكن كيف تكون التنومة في ليلتها التالية فها نحن نفارقها ونعيش في محلة جديدة لنفرض أننا لم نكن نملك بيتا؟ أين المصير في بيت نؤجره أم ننصب خيمة؟ نكون لاجئين في وطننا. قد أشعر بالغربة لكني مادمت في حي الجامعة أحِسّ أني قريب من شط العرب. سوف تكبر هذه البيوتات وتصبح ذات يوم محلّةً عامرة بشوارعها ومدارسها ودكاكينها وأسواقها فنجد جيرانا جددا نحبهم ونتآلف معهم كما تآلفنا وأحببنا جيراننا في التنومة والأقرب إلينا أستاذي في المدرسة الابتدائية كامل الرامي الذي صحا ولا أحد يصدق ذلك عنه. لم يبق لنا أيّ شيء هناك سوى ذكريات حلوة ومرة. ذكريات سوف أجدها هينة جدا إذا ماقورنت بما تحمله الأيام القادمة من محن ونكبات!

السفر الثاني

السجن

حيث يلتبس الموت بالحياة

أنا عبد الله بن عبد الرحيم أمي تفيدة وأبي عبد المعطي.

نعم تغيرت الأسماء والصفات ويجب من الآن أن تُبَدَّلَ كلّها إلى معانٍ أخرى. قد يبدو الأمر غريبا لأيِّ شخص يسمع حديثي. نحن في عصر المعقول واللامعقول. وماعليَّ إلا أن أسجِّل انطباعا جديدا حول اسمي خلال لحظات من دون أن أتململ فضلا عن أن أعترض.

قبل أسبوع من هذا اليوم بالضبط كان أبي عبد الرحيم وأمي جميلة. "بيبي ثميلة" كما ينطق اسمها الصغير مثنى، لقد حدثَ ذلكَ يومَ حضر أربعة غرباء إلى المحكمة حيث أعمل. كانت بيدي وثائق كثيرة وطلبات عديدة ومستمسكات يمكن أن أصحبها معي فأسافر إلى بغداد مساء اليوم ذاته. هي المرة الأولى التي تكلفني فيها الدائرة بمثل هذا العمل. أناس كثيرون طلبوا مني أن أضمَّ وثائقهم مع كتب الدائرة إلى بغداد حيث المحكمة المركزية هناك.

كنت رأيت بغداد من قبل حين صحبني أخي الأكبر ذات يوم لكنها هي المرة الأولى التي يكلفني بها مسؤولو العمل في السفر ومتابعة معاملات المراجعين فأحصل على أجور عمل إضافية وعلى بعض المكافآت من أصحاب الطلبات تنفعني في وقتٍ بدأ الحصار يكشِّر عن أنيابه!

في اليوم السابع تغير كل شيء تماما.

لايهم أيَّ يوم قد يكون ثلاثاء أو أربعاء فمادام اسم أبي وأمي خاضعين للتغيير فربما لاتعنيني أسماء الأيام والشهور بعد. المهم أني بدأت أميل إلى الهدوء بعد ستة أيام من القلق والصراع، وحين عدت

إلى عملي ظننت أن الأمر انتهى فلم أقتل أحدا ولم ألا حق أي رفيق ومن الطبيعي أن يميل مزاجي بمرور الوقت إلى الهدوء شيئا فشيئا. رجلي العرجاء أبعدت الشبهات عنّي حتى جاءني الآذن وأسر إليّ همسا أن هناك أشخاصا ينتظرونني أمام باب المحكمة. سألته هل يعرفهم، فتطلع في عينيّ والتفتّ حوله كمن لايرغب أن يذيع سرًّا:

يقولون إنهم من الأمن!

سألته وعلامات الدهشة مع بعض القلق يبين على قسماتي:

كم عددهم؟

اثنان

أمتأكد أنت أنهم من الأمن؟

هم قالوا ذلك.

ألم يخبروك لمَ استدعوني؟

فهز كتفيه غير مبال:

أنت تعرف الأمن!

يا ألطاف الله لم يدخلوا غرفتي ولم يرغبوا أن يظهروا معي في الدائرة. هناك أمر خطير إذاً، وفي بالي أسوأ الاحتمالات. كيف تذكّروني ومَنْ وشى بي. خلال الأيام القليلة الماضية تحاشيت اللقاء بمن بقي من أهل التنومة، ولم يأت أحد منهم لمتابعة معاملة أو طلب أمر. كنت أعود من الدائرة في البصرة إلى البيت أتجنب لقاء الآخرين. بعد لحظات معدودة يشيع خبر اعتقالي على ألسنة مجموعة من الموظفين ذوي الكروش الضخمة الفارغة التي تبتلع الطعام والكلام ثم تجترّه كما يفعل البقر. مخلوقات تعيش

لتأكل وتتكلم. لاتشبع قط. دجّالون. مُنافقون وقوّادون هَمّهم الوحيد الثرثرة ولاشيء غير الكلام. ليس بالضرورة أن يكون معقولا. منهم من يجعلني خائنا وآخر يجدني فاتكاً أعدمت بعملي الغوغائي عددا من الرِّفاق. هناك من يلصق بي تهمة اغتصاب، وسوف تدخل وتخرج من غرفةٍ إلى غرفةٍ فرّاشة وزّعت عصير البُشرى يوم احتل جيش الرئيس الكويت وهي تؤكد للموظفين بأغلظ الأيمان أني عميل وخائن ومشبوه.

أساطير كثيرة سوف تلحق بي وأنا في السجن!

وقصص مختلقة تنطلق من مكاتب الموظفين.

وأكاذيب لاأساس لها من الصحة، وربما هو عرجي الذي دلّ عليّ بين كثيرين خرجوا ودَمَّروا أو سرقوا ونهبوا ثم قتلوا غير أنّهم لم يتركوا أثرا مثلي على الرغم من أني لم أقترف أفعالا مثل أفعالهم!

مثلما وثقت برجلي، أصبحت أشكّ فيها.

هؤلاء الموظفون أعرفهم يذكرونني بين الفينة والأخرى بأخي الغائب البعيد. كيف هو؟ هل ينوي العودة؟أين في المانيا أم السويد. كأن تقاريرمسؤول الأمن في الدائرة وحدها لاتكفي، أما حدسي الآن فيذهب بعيدا. كان مسؤول الأمن يخبرني – شأنه كل مرَّة – أن أذهب إلى دائرة الأمن كلّما خطر ببال أحدهم السؤال عن أخي ولعلهم يكتفون بتحقيق سريع روتيني معي كل ثلاثة أشهر أو أربعة ويقتنعون بالمعلومات التي أدلي بها في الاستمارة الرسمية وأذيلها بتوقيعي!

وبالطريقة نفسها يحقق المسؤول مع أختي في محل عملها.

أما هذه المرَّة فالتحقيق أخذ بُعدا آخر!!

موظفون من دائرة الأمن حضروا لاصطحابي.

والظنون من حولي تضيق فتكبلني، والهواجس تخنقني!

أربعة رجال على مايبدو اثنان دخلا الدائرة يبحثان عني، وانتظر الآخران على الرصيف المقابل عند سيارة بيجو سوداء. خلال دقائق كانت أمي تقيدة وأبي عبد المعطي. لم أر وجوههم من قبل لا في التنومة ولا في أي مكان آخر. كلهم عمالقة حتى يخيل لمن يراهم أنهم توائم في السحنة والشكل والطول:

هيّا معنا!!

هل هناك من أمر؟

ستعرف فيما بعد.

أشكال توحي بالريبة. قسمات صارمة، ووجوه تدل على الشر. رافقوني إلى أمن شط العرب. بقيت هناك نصف ساعة. فتشوني وكان في جيبي بعض الدنانير أعرضوا عنها ثم عصبوا عيني وشدوا وثاقي من الخلف. نقلوني بسيارة أجرة إلى أمن البصرة. تشبَّثُ بأمل واهٍ في أن تطول المسافة قبل أن نصل ومن اللحظات الأولى تيقَّنت أنَّ هناك من وشى بي أو اعترف عليَّ. في دائرة الأمن ألقوا بي في غرفة تعج بالسجناء. حين قذف بي الحارس راح يضربني ويضرب الآخرين خبط عشواء على أرجلنا ورؤوسنا وهو يزعق:

هنا أيها الخائن! أيا أعرج النشوم. هنا مكانك مع الخونة!

وبعد أن غادر وأغلِقَتْ أبوابٌ عرفت أنها ثلاثة بدأ الحاضرون يطمأنونني في أن أرخي العصابة عن عينيَّ. ربما رأيت أشباحا، ولعل هناك من قَدَّم لي جرعة ماء. قطرات فقط، ننتظر ونتحدث همسا يلفنا الخفوت، ونورٌ مبهم انفلق من ضبابٍ وظلامٍ، فكان أكثر قسوة منهما، أين تبخرت الحقول، وهل اختفت فجأة المراعي والبنايات والأسواق ثم كيف تسع زنزانة ضيقة مئات المساجين؟لاشكَّ أنه عالم عجيب أقرب للحلم، من المحتمل أن أكون سمعت عن شبيه له في قصص ألف ليلة وليلة. سحر مزعج مخيف لاهو بالمظلم ولابالمنير فكيف أدرك فيه الأشياء لكنِّي لابدَّ أن استسلم للعجب فيبدو لي المكان الصغير ذو العتمة وهو يلتهم الضوء الساطع في الخارج مثل جرثومة لها القابلية على أن تلتهم ملايين البشر وتقضي على الناس والحيوان.

هكذا بدا لي ذلك المكان المعتم الذي رأيته ولم أره، وعلى بعد منا كنا نسمع صوت استغاثة وضرب. بريء. أنا بريء. استغاثة وضرب. يعقبه توسل. صراخ. ثم فاجأنا بعد ساعة أو أكثر أوّلُ الأبواب بصريره الحاد فسارع الآخرون إلى عُصاباتهم والتحمت عُصابة على عيني مع الظلام والنور الخافت الضحل وحالما انتهى أزيز الباب الثالث الجاثم عند زنزانتنا حتى سمعت صوتا ينادي على اسم ما من الحاضرين ثم صاح:

عبد الله عبد الرحيم!

شد شخص ما وثاقي ودفعتني يدان إلى مكان ما. أنا هو إذن ولست غيره، وإن كنت فيما بعد سمعت اسما آخر. كنت أتحاشى

أن أتعثر أو أسقط فأتعرض للضرب وقد وجدت صعوبة ما في حفظ توازني وأنا موثوق اليدين من الظهر ومعصوب العينين، وثقل جسدي كلّه يميل نحو قدمي السليمة:

-عبد الله عبد الرحيم

-نعم أنا

إنهم ينتظرون منّي زلة لسان ليقذفوا بي في أعماق ذلك الوحش الرهيب:

-أمك تفيدة وأبوك عبد المعطي؟

-كلا ليس هذا.

فاجأتني ضربات من جميع الجهات. رشقاتٌ قاسيةٌ بأنابيب من البلاستك والعصي. انهالت فجأة وتوقفت فجأة، وانقطعت الحركة. بضع دقائق فلم أسمع إلا همهمة تصدر عن بعد صَعُبَ عليَّ تحديده وعاد الشخص ذاته يسأل:

-عبد الله بن عبد الرحيم!

-نعم

-من أهل التنومة بيتكم بجاور الجامع. أمّك تفيدة وأبوك عبد المعطي وأنت أعرج وأعور سأجعلك أعور أيضا قبل أن تموت لكن لا تستبق الأحداث، هل تظنني ألعب معك؟

نعم لا أنكر. ربما شاءت المصادفة أن أصبح تيمولنك وموشي ديان معا. تيمورلنك أمّهُ تفيدة وليست "ثفيلة" وأبوه عبد المعطي حكمة الله وقدره الذي لا راد له:

-نعم

صفق الحاضرون واقترب مني أحدهم قائلا:

فهمت ماذا نريد؟

نعم! نعم!

قل لي ماذا فهمت؟

أن أقول الصدق من غير لف ولادوران!

مااسمك إذن؟

أمي تفيدة وأبي عبد المعطي وأنا أعرج ولست أعور. كانت أمي تخاطبني حين ألح عليها في إزعاجي بماهتي فلا أغضب بل أزداد مشاكسة، أما أنت فلا بأس عليك قال لي الأستاذ الرامي ذلك، ليس بالضرورة أن يشعر كلّ ذي عاهة بعقدة. تيمور لنك الأعرج احتل العالم وموشي ديان ناك اخوات مائة وخمسين مليون عربي في ستة أيام حسوما، فما بالك بي وقد جعلت لواء مدرعا يفرّ، الآن جمعت الاثنين!

وجاني صوت من جهة أخرى غيرَ الأوّل الذي كان يسألني عن قرب:

حسناً ها أنت تتقدَّم نحو الأحسن.

إذاً اعترفْ"وواصل قبل أن يسمع مني أي رد"اعترف أفضل لك سوف توفر علينا الوقت وعليك الجهد.

عماذا أعترف.

أنت خائن؟

ما عليَّ إلا أن أواجهه بإنكار:

لست خائنا.

اعترافك منذ البداية يخلصك من عذاب ويخفف عنك حكم الموت فإن كنت برجل واحدة فلاتغامر بعين ويد وأذن قبل ان تُسلَبَ روحُك.

وعاد صاحب الصوت عن بعد يعقّب:

أسمع كلنا نخطىء والخطأ ليس عيبا أمّا الجريمة الكبرى فهي حين ننكر الخطأ وهو الأمر الذي يؤدي بنا إلى التهلكة وإلا فهناك عدد من الخونة الذين تابوا ونعموا بالعفو فكانوا بعد ذلك مواطنيين صالحين!

الاعتراف يعني الموت أم هناك من أدلى بمعلومات عنيّ. لاأشك في معلمي كامل الرامي قط، هو الذي اندفع متحمسا فوجد لي شغلا عن طريق معارفه في دائرة العدل، وهو من كان يسخر من الدولة أمامنا في سكره الدائم، فمن رآني أعبر الشارع خلال يوم الغليان أو أحرض. حقا حملت أول يوم للتمرد بندقية فارغة من أية إطلاقة غير أني لم أحضر من مراسم القتل سوى مصرع راجي المزروع، قد يكون هناك من تبيّن صوتي وأنا أذيع مرسوما من سماعة الجامع يدعو الجند إلى الاستسلام ومن هن هؤلاء النسوة التسع اللائي يذكر المحقق أنهن كتبن عني التقرير. في البدء خشيت أن تكون هناك وشاية أخرى صدرت من شخص ما بحق صهري، وسوف تكون تلك كارثة لو جاء خبر مدسوس من أحد يخصّ أختي فتتعرض مثلي أو أكثر إلى تعذيب جنوني وهتك عرض. هي كذبة من المحقق. طُعْم، فذهني مشغول عن ذكر الرجال ضعاف النفوس ممن ينهارون تحت التعذيب فضلا عن

النساء. لاأشك أنه استدراج. فخ:

لكن ليس عندي شيء أقوله!

هيّا علقوه!

انتشلني من وقفتي رجلان رفعاني إلى أعلى فوق طبلة نحو حافة باب يبدو أنه كان مفتوحا. ماعلي إلا أن أراه بهذه الصورة وأتخيل رجلي على طبلة أو منضدة صغيرة، فلو كان سقفا لأدركته من خلال الفراغ خلف ظهري، الرَّجُلانِ علقاني على حافة الباب فالتمست فقراتي صلابته وماهي إلا لحظات حتى أزاحا الطبلة من تحت قدمي. بدأ الضرب ينهال علي:

اعترف! اعترف أعرج الشؤم!

ثانية!! والاعتراف يعني الموت. تدخل بنفسك في حضيرة وحش كاسر فاتح شدقيه تجاهك لاتعرف بأَيٍّ عضو من أعضائك يبدأ. الاعتراف. الموت. السمّ:

ماعندي شيء!

ثم يعودون إلى تعليقي بالطريقة السابقة نفسها. العملية دامت ساعتين بين ضرب وتعليق. علقوني ثلاث مرات. آخر مرة تركوني مرميا على الأرض. بعد عشر دقائق رجعوا إلَيّ. كانوا كلما رأوني على وشك الانهيار أنزلوني وباشروا بضربي على الأرض. سألني أحدهم:

أمصرٌّ أنت على الإنكار؟

الإنكار. *نعم وماذا* غير الإنكار إذ أني لم أَفعَل شيئا. أحسّ أنّي وحدي في هذا الموقف. النكتة ابتعدت عني. السينما هجرتني

الجامع تركني على حافة الباب. البلاغ العسكري وحده في الذاكرة. سأقول إني خرجت إلى الشارع لأرى جنودا مدججين وأناسا حملوا السلاح وأنا وحدي عاجز إنّه العرج. العرج الذي كان علامة فارقة تدلّ عليّ أصبح سببا بيدي:

لكن على أي شيء أعترف وأنا لم أقترف ذنبا!

أنبرى صوت رجل من بعد:

أنت مسؤول إذاعة شط العرب!

أولاد الذين. من ميّز صوتي. أدنيت المكرفون من فمي حتى تضيع نبرتي. هناك شخص وشى بي أو وجدوا ورقة ما. ولابد أن تكون تلك السماعة القديمة بلاقطتها الضخمة ذاتَ سُمْعَةٍ مخيفةٍ ورهبةٍ حقيقيةٍ ارتجت لها سجلات الأمن فلأراهن على أمل ضعيف. الاعتراف يعني الإعدام، ويؤكد أيضا جريمة مسهري وكامل الرامي:

لاأعرف ماذا تعني!

وأنا أواجه التعليق من جديد. تركوني ساعة ملتصقا بالباب. خلت أنّ يديّ انتهتا تماما. انخلعتا. لاأحس بهما. جَسَدي غريب عني. أصبحت غريبا عن أجزائي وجسمي بعيد عني. لا أشعر إلا بخدرٍ كوخز الإبر في ساقي العرجاء. هي وحدها التي تتكلم معي.

لقد أغمي علي تقريبا.

كنت بين اليقظة والإغماء

وأنا قاب قوسين أو أدنى من الموت.

قال أحدهم:

اتركوه سنعود إليه بعد قليل. هناك ثلاثة ماتوا ولدينا جماعة أكثر أهمية منه علينا أن نحقق معهم.

ربما كان كلامهم صحيحا أو هو حديث مفتعل غرضهم استدراجي وتخويفي. بين مصدّق ومكذب وتشبّثي بالحياة يوحي إليّ أنها مبالغات. استراحة قصيرة. أستطيع أن ألتقط أنفاسي. هذه المرة استخدموا الضرب من غير أن يجعلوني أحلّقُ في الهواء. مجموعة أخرى تأتي تسأل التي تعذبني أن تذهبَ للتحقيق في مكان آخر ثم تبدأ المجموعة الجديدة عملها. استمر الضرب بين لحظة وأخرى كي ألين وعلى الرغم من آلام الضرب والصفعات والركل إلا أنني كنت أسمع أصوات صراخ وأنين من أمكنة ما مما جعلني أدرك أن المجموعات كانت تتناوب علينا فاختصَّت كلُّ واحدة بعمل تفوقت به على الأخرى. جماعة تضرب بالسياط والأسلاك الكهربائية والركل واللكمات والصفع تفوق غيرَها بقوة الركل وأخرى تجيد كل الفنون وتتفوق بضرب السياط وثالثة لاينقصها الركل والصفع غير أنها بارعة في فن الصفع إلى أن جاء ضابط، وأمرهم بالتوقف فامتثلوا لأمره. قال اتركوه يراجع نفسه ونحن متأكدون من أنه سوف يعترف. أرجعوني للغرفة السابقة – مكتب التحقيق– ورموني على أرض خشنة. لاأدري إن كانت خشبا صلبا أم من مطاط. انتبهت خلال بصيص من الضوء أن الغرفة خالية من أي شبَّاك. هناك على تلك الأرضيّة الخشنة بدأ أفراد بتدليك جسدي ورجلي. طلبوا لي ماء. بضع قطرات وضعوها في فمي. لم أكد التقط أنفاسي حتى قال واحد من هؤلاء الذين

دلّكوا جسدي:

اعترف أفضل لك!

عن أي شيء؟

قال آخر:

هناك من اعترف عليك!

صوت من بينهم:

قائمة اسماء طويلة عريضة!

يا ابن الذين. لعل الغرباء نسوا قائمة دونوا بها أسماء من ارتادوا الجامع أو من فعل الامر متعمدا، فيقطع علي أحد المتحمسين شطط ذهني الذي راح بعيدا:

يا أخي إذا أردت تموت أنت فما ذنبنا نحن؟ اعترف وخلّصنا!

ولمّا طال سكوتي زعق بي صوت:

كلب أمصر أنت على النكران!

كدت أقع في الفخ، فهؤلاء من دائرة الأمن وربما تكون الورقة والاعترافات من اختلاقهم رغم أني لاأنكر ما ادعوه وأتوقع أن هناك من يضعف ويعترف. كنت أحمل بندقية وأسير في الشارع فمن رآني، وأنا مصر على النكران؟ النكران، هو السلاح الوحيد الذي معي ولاأستطيع أن ألقيه لأني لاأريد أن ألقي بنفسي إلى التهلكة فهل يستطيع جسدي الضعيف أن يقاوم الضرب والتعذيب والركلات والجلد والسياط؟

لو كان عندي شيء لقلته!

بقيت وقتا طويلا على الأرض الخشنة. كل نصف ساعة يأتي

محقق يتحدث معي، ويكرر: اعترف. أفضل لك أن تعترف. عليك اعترافات عليك اعترافات يا تيمورلنك. ورقة فيها أسماء. أنت من ضمن الفوغاء. قلت لآخر شخص تولى التحقيق معي ذلك اليوم:

أنا عاجز لاقوة ولاقدرة عندي لأكون مع الفوغاء، وكانت إيران قريبة مني ولم أهاجر. رأيت الذين يهربون إلى خارج الحدود فلو كنت مذنبا لرحلت مع الآخرين!

فقال رجل التحقيق:

هناك أكثر من عشرة أشخاص كتبوا عليك من بينهم تسع نساء!!

حليمة وشكرية ونجاة وحسنية، ليلى ونرجس. أيُّ اسم. لاأدري من هنَّ. لو قابلت معظم نساء التنومة في الشارع لما عرفتهن. علمونا أن نمشي وعيوننا تنظر إلى الأرض، فكيف عرفنني، وشخصن صوتي؟ المحقق يؤكد ثانية الخبر، وذهني مليء بأسماء كثيرة تذهب وتجيء فبمن أشكّ من نساء التنومة أو نساء الجيران؟ لم يكن أحد معي في الجامع سوى صهري، وحالما أذعت النداء خرجت إلى بستان أصفر، والتقيت في الطريق كامل الرامي الصاحي السكران لا الحكومة تعبأ به والى الأمن ولا الثوار. من رأتني منهن أقطع الطريق الساحلي إلى منطقة كردلان كأني مارشال يتفقد قطعاته العسكرية؟ربما لاأحد من المدججين بالسلاح يعبأ بي. كنت أعلق البندقية في كتفي. صهري وأختي أفرغاها من الإطلاقات خشية أن آذي نفسي أو أقتل أحدا خطأ. هناك من لوح لي من بعيد، وملثمون يستقلون سيارات مسرعة

كانوا مشغولين بمطاردة منتسبي الأمن والرفاق الحزبين. معظم هؤلاء هاجروا إلى الشرق أو سقطوا قتلى بعد الاجتماع في خيمة صفوان. قد يكنّ رأيتني حضرت إعدام الرفيق المزروع لاأنكر أني ذهبت مع الحشود ولم أكن مسلحا في تلك اللحظة بل أشفقت على عائلة الرفيق وكنت على استعداد لأتبنى عائلته وأحميها حتى تزول الغمة. لحظات والمحقق يضيف مهددا:

حسنا هناك شخص من منطقتك سيأتي ليراك أية كلمة منه ليست في مصلحتك تدفعني لإعدامك وأنت في مكانك!!

وأكد جادا حتى خلته يصر على أسنانه:

هنا في هذا المكان من دون سؤال.

مباشرة أحسست بيدين خلف رأسي والصوت نفسه:

سأزيح العصابة عن عينيك وماعليك إلا أن تبقى مغمض العينين حتى آمرك بفتحهما.

أزاح العصابة عن عيني، خلت ان هناك شخصا يتراجع. كنت مطأطأ رأسي نحو الأرض وعيناي مغمضتان واضعا في الحسبان أن تكون تلك حجة إختلقوها لاستمرارهم في التعذيب:

افتح عينيك!!

لم يكن هناك من ضوء، لاحت مسطبة قديمة فوقها سوط غليظ وبدلة عسكرية. التومة جاءت إليّ تسعى ببيوتها البسيطة الممتدة من شط العرب إلى عمق البر، وبنخيلها المتراقص على نهر الحوامد باتجاه كردلان والصالحية. النخيل والشوارع والناس والماء والحضرة جاءت إليّ. كلّ شيء من حيوان وبشر ونبات وماء

وخضرة يمكن أن يدينَني. أمام عيني مباشرة يشخص ابن محلتي. سيقول كلمته الفصل. في التنومة كلّ شيء يتكلم. النبات والحيوان والإنسان وأنا معلق بين الحياة والموت بكلمة واحدة. التنومة في زنزانة. عيناي انفرجتا له كمصراعي نافذة واسعة بعد أن كانتا معصوبيتين عن الجميع. شخص مغمور. ابن محلتي نصير في الحزب لاتربطني به علاقة سوى تحية الطريق جاء لينفذ حكم الإعدام فيَّ. لاأدري أشفقةً أم تراه تأمل وتفكّرلحظة. هل عرف من هو صاحب الصوت القادم من المسجد المحرض على التمرد؟كنت أنظر في عينيه وينظر في عينيّ. يزويّ ما بين حاجبيه، دجاجة أمام قصاب. عيناي وعيناه. كلمة واحدة فقط تنقذني أو تدفعني إلى المقصلة. نعم أو لا لاثالث لهما. الصمت شفيعي وحده. ينظر في عيني ينتظر سؤال المحقق. أيّ انطباع أقرؤه في وجهه؟التشفي. الغضب. الشماتة. خيل إليّ أن وجهه كوجوه لاعبي القمار المحترفين. المحقق خلف ظهري، وكأن عينيه مثبتتان بمسامير على وجهي هل رآني ياترى؟ لاأنكر أني خرجت. بماذا يحدث نفسه الآن؟ جبان ركن في المنزل طوال أيام المحنة فهو لم ير احداً وعندما انجلت الغبرة وبسطت الحكومة سيطرتها على البلد تطوع ليرتقيَ درجة في الحزب فقطع علينا الصمت المهول المرعب المحقق من خلفي:

عيناك في الأرض ولك كلب!

تنكسر عيناي وأنا جالس القرفصاء بيدي المربوطتين إلى ظهري وتحومان على حذائي:

قل رفيق هل رأيته مع الغوغاء؟

كأنه أراد أن يقول نعم أو تردد بعض الشيء، هو في حلم أم حقيقة أيقول رآني أهبّ لرؤية راجي المزروع قتيلا خلف البيوت أم لمحني ذات يوم أحمل رشاشة كلاشنكوف أم خمّن أني صاحب الصوت المرتعش المجلجل القادم من المسجد؟

نعم رفيق؟

لا ابدا لا.

وانزاح هم ثقيل عن صدري، وتنفست الصعداء. أنا وحدي معي سلاح الإنكار. كيف يتحمل جسدي النحيف أطنانا من التعذيب، وقد ألقى إليّ الآخر بحبل نجاة:

-أمتأكد أنت؟

-نعم لنعم!

قالها مثل ذئب امتلأت معدته من فريسة التهمها قبل لحظات فمر بصيد حي آخر فلم يهاجمه. فتداعت بصدري لحظة ارتياح أنستني كثيرا من الألم. وحالما غادر عادت العصابة تجثم على عينيّ فغاصت الغرفة والمنضدة والسوط في الظلام فعرفت من صاحب الصوت أن المحقق تغير بآخر:

-قل لي ماذا رأيت في الطرق؟

-لاأعرف ماذا تعني!

-حيوان مَنْ منَ المسلحين رأيت في الطريق؟

ذاكرتي تلوذ بالموتى بمن قُتلوا في المواجهات وأسماء محسوبة على الحكومة أو أبرياء كانوا يعبرون الطريق مستطلعين غير مسلحين. وإلا، فيقطع علي المحقق تعدادي الأسماء:

-من قتل الرفيق راجي المزروع؟

-لو كنت أعلم لأخبرتك.

-لكنك حضرت مصرعه.

يجب ألا أنكر يبدو أن هناك من رآني فكتب:

-ذهبت إلى هناك فوجدت الجثة في الخربة وحاولت أن أدفنها فخشيت من المسلحين.

-لماذا ذهبت؟

-مجرد فضول. "وأضفت مؤكدا" أنت في محلة كل واحد فيها يعرف الآخر لابد أن تخرج حين تسمع ضجة في منطقة ما من محلتك لتعرف ما الأمر.

-من رأيت هناك؟

-حشداً من الناس!

-كم عددهم؟

-الله أعلم خمسون مائة أكثر؟

-من أين كانوا يأتون؟

-من طرق فرعية ومن الشارع العام ومن جهة كردلان والجامعة القديمة "ولذت بعبارتي أعيدها"إن أي حدث مثل ضجة عن بعد أو إطلاق نار في مكان يثير بلا شكٍ فضول أهل التومة، فنحن مثل العائلة الواحدة.

-خراء عليك وعلى العائلة الواحدة، حيوان أعرج لا تجترّ الكلام، أتتذكر بعض هؤلاء؟

تعود ذاكرتي ثانية للأسماء التي هربت نحو الحدود والميتين فما

على الذاكرة إلا أن تحتفظ في سطوعها، أسماء كل الغائبين من هازيين خارج الحدود وميتين وتنبش عن أسماء جديدة غائبة، أتشبّث بها ولا أنساها، ويسأل:

-من دفن الرفيق؟

-لاأدري ولو رأيت عائلته أيام المحنة لما ترددت في إيوائها.

سمعت غمغمة طويلة وضحكا هستيريا وكانت كفُّ المحقق تقع على رقبتي:

-صاير حاتم الطائي لك خراء، أعرج الشؤم، والرفاق خالد ومضر وجندب وأبو إيمان الذين سماه الغوغائيون أبا لهب من قتلهم؟

أنتبه إلى أن مغالطة في مصلحتي فأقول:

-سيدي أنت تعرف أني معاق لا أقدر أن أجاري مشي الآخرين ولاأعرف استخدام السلاح فكيف أطارد كل هؤلاء الابطال ولم أفعل ذلك أهذا يعقل والله لا أقدر ولو كنت غير ذي عاهة.

ردَّ بصلافة سبقتها ركلة وقعت أسفل ظهري:

-لك حيوان أنا لم أقل إنك فعلت ذلك بل من فعل هذه الجرائم!

وعدت إلى أسطوانة قديمة صممت أن أبدأ بها كلّما وجهوا إلي تهمة التمرد:

-كيف يمكن لشخص لايعرف استخدام السلاح أن يخرج إلى شارع مضطرب. لقد بقيت في البيت كل أيام المحنة ماعدا مرة أو مرتين ذهبت فيهما أشحذ طعاما للعائلة!

مرت فترة صمت فتحدث مع أشخاص خلتهم على بعد خطوات

منا:

-حسنا انتهينا منه اليوم خذوه!

اقتادني الحارس إلى الردهة المظلمة المعتمة التي ندخلها بعد البوابات الثلاث المملاقة، وعندما وصلت دفعتني كفّ غليظة إلى الداخل. بقينا لحظات صامتين وقبل أن يختفي الرجل قال متوعّدا:

-أحدكم أخوه ضابط شرطة اتصل أمس متشفعا له عند قاضي الأمن. أنا صاحبكم المفوض أبو سيف أقول لهذا الشخص سوف يكون عذابك أكثر من غيرك وكلّ واحد يفعل مثلك نضاعف له حصة العذاب!

جلست القرفصاء إلى ثاني يوم. يداي تعانقان ركبتي. ولا تتنمّل رجلي المعاقة. لا أتعب مرتاحا لأيّ وضع. أية جلسة اخفّ من مواجهة المحققين وقسوتهم. يمكن أن أرتاح لهذا الوضع لوبقيت أسبوعا أو أكثر. ولم يكن بإمكاننا وسط العتمة أن نتحدث بصوت عال خشية من أن يكون في الصالة جهاز ما يتنصت فضلا عن أنه لم تكن لنا الرغبة في الكلام من شدة التعب والآلام:

-من أين أنت؟

يميل على أذني اليسرى سجين يجلس جنبي.

-من التنومة وأنت؟

-المعقل.

-هناك شخص معنا من أهل التنومة.

الشكّ يساورني في محدثي:

-يستحق أيّ عذاب إن كان من الفوغاء " وأستدرك" والله في

عونه إن كان بريئا!

عليّ أن أعرف من نبرة الأصوات أشكال محدثيّ الهامسين في أذنيّ جهة اليمين والشمال. وجوه أصحابها وسحنة أشكالهم. قد ألتقي في الشارع مصادفة إذا نجوت أحدهم فلا أدري أنه هو من كان جنبي في هذا السجن:

-الله في عون الجميع.

وضعت في بالي أن يكون معنا بعض الجواسيس الذين يمكن أن يستدرجونا عبر الهمس والصوت الخافت، فاعرضت عن الكلام متظاهرا بالنوم طوال الوقت. وقت الغداء حصلنا على كسرة خبز وكأس ماء. ثاني يوم في الليل بدأ التحقيق معي من جديد:

-عبد الله عبد الله!

نعم!

صفعة قوية على صدغي:

-كم مرة قلت عبد الله؟

اثنتين!

-إذاً لم أجبت بنعم مرة واحدة؟

لزمت الصمت، وواصل:

-أتظنني أهذي أم ماذا؟

مازلت صامتا وكان يقول:

-ابن عبد الرحيم أمك تفيدة وأبوك عبد المعطي اعترف أحسن!

-أقسم لك أني لو كنت أعرف شيئا لقلت ولو كنت مذنبا لهربت مع الذين هربوا إلى إيران!

- عبد الله بن عبد الرحيم ألم تكن مسؤول إذاعة شط العرب؟

-أنا؟ أنا؟

-نعم أنت أنت هل تستغرب؟

كأنه ازدرد شيئا ما وعاد يضيف:

-هناك من اعترف عليك؟

-سيدي أنت صاحب عقل كبير ولو لم تكن صاحب عقل كبير لما احتللت هذا الموقع أنا شخص لم أكمل المرحلة الثانوية ولا أحسن استخدام السلاح، ولم أذهب للجامع إلا مرات معدودة مع والدي وبعد وفاته فكيف أحتل منصب مسؤول إعلامي في إذاعة؟ أهذا يعقل؟

-من إذاً تولى الإذاعة؟

-هل تسمح لي بسؤال؟

شيء صلب ينكز خاصرتي لاأدري أهو حذاء أم اسطوانة:

-أنا من يسأل وأنت تجيب فقط! وأردف: مفهوم؟

-مفهوم!

بصفعة على رقبتي:

-مفهوم سيدي!

-مفهوم سيدي

-ما الذي تريد قوله؟

-ألم يأت رفيق هنا من أهل التتومة رفيق، استدعيتموه، لا أتذكراسمه إلا سلام عابر معه مصادفة على الطريق شهد أنه لم يرني؟

-ألف رفيق تحت حذائي وسوف تموت بركلة من قدمي إذا لم تخبرني أين كنت ساعة إذاعة البلاغ؟

-كنت في البيت.

ماذا كنت تعمل!

لاشيء غير المرض أستند إليه في حجتي:

-في الفراش أمر بفترة نقاهة من روماتزم داهم رجلي المعاقة قبل أسبوع من أحداث الغوغاء لكني في اليوم ذاته جربت أن أمرن رجلي من رقاد طويل في الفراش.

تعليق ساعتين. ضرب بالأسلاك. انزلوني. ادخلوني أحد الدهاليز. شعرت أنها حجرة صغيرة. فتحوا يدي، وأمروني أن اخلع حذائي وصرخ بي صوت:

-ضعه في فمك!

انصعت للأمر وما كدت أنتهي من خلع الحذاء حتى أمرني آخر من الجهة المقابلة:

-عضه جيدا.

متكئا على الحائط كنت أو هي الوضعية التي أرادوني ان أكون عليها، وما زلت منتشيا بجلسة البارحة التي تخفف من المي، رفعوا رجلي إلى الأعلى. فلقة. جلدة وثانية وثالثة وأخرى، وفي رغبة جامحة للهرب حيث يتسع النسيان فيجعلني أنسى، أتجاهل. أتشبث

بمشاهد قديمة، ألوذ بطرقات مشيتها وأخرى لم أدخلها. مر بي ترنتي وهو يدخن السيجار ويصرخ:kiss kiss كنت أجمع الإثنين: تيمورلنك وجنرالا دخل حربا سريعة. وكان ثمة كامل الرامي وفلم القادسية وتعليقه على المسألة الكبرى. مالنا وللمسألة الكبرى؟ الممثل العربي لايجيد ركوب الحصان مثل الممثل الأمريكي. أنصت جيدا لنكات الأستاذ كامل الرامي وهو يطلب من الخميني أن يصدر فتوى بحلية العرق أو يضع شرطا لكي يصلي بأن يُحذف من القرآن اسم كوثر أو وهو ينتقص من الدنيا جميعها فلا يستثني أحدا أو أقصد المرفأ ومعي الشص والطعم هناك على ألواح الجسر الخشبية أراقب الفلينة تفطس فتعتريني لذة الفرح لسمكة الشانك وهي تعلق بالسنارة، وأمي لايهمها السمك الطازج اللذيذ بل الخوف عليّ من خطر النهر:

-لاتذهب مرة أخرى المكان خطر، والخشب لزج. الأصحاء لا يغامرون ماذا لو انزلقت بك رجلك إلى العمق!

اقول بلى لكني أذهب مرة أخرى، وأنا في كل مرة أنكر وألوذ بالماضي وصوره الأخرى التي ابتلعتها الزنزانة فلم أعد أشعر بالضرب وكأن رجليَّ انتفختا فأشعل أحدهم سيجارة ووشمهما مرات. إحساسي بالحرارة والضرب مفقود. باطن رجلي انفصل عني.

تساوت الرجلان ثم اختفتا من الالم. صرخ بي صوت:

-انهض! انهض حيوان!

ولما وقفت صاح الرجل الواقف في الجهة المقابلة:

-راوح حقير!

وأكثر من صوت يزجرني:

-راوح راوح

المراوحة وشرر يتطاير من عينيّ. بدأت الحرارة تدب في رجلي، أولّ ما استفاقت رجلي المعاقة. عندما وصلت إلى هذا المستوى بدأوا الكَرّة من جديد. دام التعذيب بحدود ساعة. فلقة. تورم. تجاهل للألم مع كاري كوبر وشرنتي والهرب إلى السوق أو السينما أو المسجد. ذكرى والدي. أمي. أي شخص. أي مكان كان. أمي تزورني. أبي يطلب مني أن أهبَّ معه للصلاة. كامل الزامي ينتقد مرّة أخرى بسخرية لاذعة أفلام الحرب السريعة. وعن بعد يلوح لي كاري كوبر بقبعته، وآخر يتابع عصابة عاثت بإحدى المدن. انتفاخ. وشم بالسجائر. مراوحة مرتين. ثلاث مرات. المرة الخامسة صاح الضابط:

علقوه على حافة الباب!

هذه المرة بقيت حافيا. يبدو أن الباب كان أوسع من باب غرفة التحقيق. ما عليّ إلا أن أبقى معلقا على الباب وأحفظ توازني، فلا أقع ولا تلمس رجلاي الأرض أو حافة الباب. كنت أصبر بضع دقائق ثم أنسى أن لي رجلين. وحدهما تلتصقان بالباب وتهبطان على الأرض، وكل مرة مع أي التصاق أو هبوط يعود الجلد. جلد فوق الرجلين وصعق كهربائي على الرأس وفي الأذنين. أربع مرات تكررت الحالة، فلم استطع حفظ توازني أكثر من ربع ساعة. كنت أصل إلى لحظة تتحرك فيها رجلاي لوحدهما نحو الباب أو تهبطان إلى الأرض. رجلي المعاقة آخر ما يغيب من جسدي وأول

مايستفيق وفي المرة الخامسة قلت:

-أعترف!

نزلت. ارتحت قليلا. لم أعد أخاف من شيء. ما الذي أتحدث عنه. قلت:

-أمل علي ماتريد وسوف أوقع لكم!

زادوا الضرب. تعليق من جديد ، وضرب عدوني أسخر منهم. حيلة كي ألتقط أنفاسي بضع دقائق. وأنا أصيح:

-أعترف! نعم!

-قل ماعندك.

ارتحت قليلا ثم قلت:

-لقد ذهبت إلى المسجد لاأنكر ذلك. نعم ذهبت إلى هناك!

-تذيع بلاغا؟ أم تهيء الجامع للغوغاء أم ماذا؟

-كلا. أنت تعرف البلد بأزمة. لاماء لاطعام لارز، وفي بيتنا نساء وطفل. خرجت أبحث عن طحين وبعض الزيت. سألت في الشارع عن بعض الطحين فقال لي الناس إنهم يوزعونه هناك في الجامع، ربما في الطريق قابلت من دون أن أنتبه الرفيق الذي جاء أمس وشهد أنه لم يرني أحمل سلاحا ، وعندما وصلت قال لي من يتولى شأن التوزيع إن الخبز لم يصل بعد!

كذبة أخرى.

تمثيلية قد تمرّ لكنها تزرع الشك بين الصدق والكذب عند هؤلاء. ليتني أستطيع رؤية وجوههم بوضوح. ترتيب لأحداث وفبركة ساعدني فيها صديقي القديم كوردن مشن. وأظن أنها قد تنطلي

على محقق ذكي لكن هؤلاء لايستخدمون عقولهم بقدر قبضاتهم وفي بالي كلّ مايدفع الشبهة ينفع، وأنا على الأرض أستقبل الضربات والركلات ثم تتوقف الأرجل والأيدي ليسمعوا حكايتي:

-وبعد؟أكمل

-جاء الخبز بعد انتظار ربع ساعة؟

-أعطوك؟

-نعم! "وأضفت أفبرك الحكاية" أحدهم قال لي إنك لاتستحق المساعدة. سألته لماذا؟ فأجاب إنت لست من الثوار هكذا كان يسميهم.

ركل وضرب وعفطات، وسكون:

-كم مرة ذهبت إلى الجامع؟

-مرتين!

مرتين فقط؟

في هذه لم أكذب مرة أذهبت بلاغا ثمّ حملت سلاحا فارغا وانشغلت مع الرامي. أصبحت جنرالا بعينين. ومرة ذهبت فوجدت بيت الله مكتظا بالغرباء:

-نعم!

-من رأيت في المسجد؟

هنا لم يتدخل أحد. ذاكرتي وحدها سطعت فجأة، فذكرت اسم ثلاثة ممن رأيتهم مسلحين في الشارع وقد قتلوا عند اقتحام الجيش للتنومة أما عوائل هؤلاء فقد هاجرت إلى إيران، وصاح الضابط:

-والباقون؟

-الباقون ملتحون غرباء لاأعرفهم لعلهم عرب من الأهواز أو عملاء:

-ذكرت أنك خرجت إلى الجامع لتطلب طعاما لعائلتك وبقية الأيام؟

-كنت أتحاشى مغادرة المنزل بسبب الخطر والفوضى ثم إنها رجلي التي تمنعني من الخروج "واضفت" سيدي أنا كنت معفى في المدرسة من درس الرياضة، ولم أكن لألعب كرة القدم فكيف أخرج وأحمل سلاحا.

-من رأيت وأنت في الطريق؟

مَنْ مِنَ الموتى ينجدني تلك اللحظات العصبية؟نبشت ذاكرتي. ومن غير الرفيق الذي برّأني قبل قليل وبعض النسوة وغوغاء ذكرت أسماءهم سقطوا صرعى والرفيق راجي المزروع الذي يمكن أن أدّعي أني ذهبت مع الرامي لدفنه. عودة للضرب والركلات، تعليق آخر بالباب، ثم نزلت، وهناك أمر بصيغة تحذير وسؤال:

-خذ وقع على اعترافك!

الحمد لله الخطوة الأولى مرت بسلام، والحكاية لاتعيبها ثغرة. انفتحت بعدها البوابات الثلاث، فاستلمني السجناء. رفعوا العصابة عن عيني وسارعوا يدلكون رجلي. همس صوت باذني:

-نحن نسمع صوتك!

ورد آخر: تحمل!

-لاتعترف

حالما تعترف تموت.

فجأة رددت بنرفزة زاجرا محدثي السجين مفترضا أسوأ الاحتمالات:

-ليس هناك عندي من سر أو شيء خطر لأعترف!

بقيت سبعة أيام في سجن شط العرب. كنا نحصل على كسرة من الخبز المصري وقت الظهر وقدح ماء في اليوم، ومع حلول الليل كانوا يقدمون لنا بعض الحساء ولم نكن نعرف ماهو. لم أعلّق على الباب خلال تلك الايام بل كان التعذيب ينهال علينا عند الذهاب إلى دورة المياه. ظل الحراس ينزلون علينا ضربا بالسياط على أي مكان من الجسم. كان التعب والإرهاق يجعلاننا نعزف عن الكلام فضلا عن الخوف من أجهزة التنصت. فيشملنا طول اليوم سكون راكد أشد وطأة من صمت المقابر المهجورة، سكون لايحركه إلا بعض الأحلام في حالة إغفاء أو أحلام يقظة ويزحزحه للحظات صرير الأبواب وهي تُفتح وتُغلق عند تقديم الطعام أو لنخرج إلى دورات المياه فنتلقى ضربا لايقل سوءا عن التعذيب في أثناء التحقيق.

وفي اليوم السابع نقلونا إلى مكان ما.

أول الأمر جهلنا إلى أين نسير. كنا موثوقي الأيدي مربوطين في صف. سرنا حوالي المائة متر، نسيت أني أنوء برجل أتوقع أن تخونني أيّة لحظة. جزء مني قد لا أثق فيه ربما لفت إلي العيون خلال تلك الأحداث، ولعلّه يعلن براءتي، التشبث بالحياة جعلني

أنسى كثيرا من الأمور فأبدو أكثر قدرة على التحمّل. قد يسقط أحدنا من الإعياء فيرفعه من يسير خلفه. عميان يمشون. المشهد القاسي أشبه بعميان نجوا من قدر ألقاهم في غابة تعج بالوحوش، فتشبّث أيٌّ منهم بظهر الذي أمامه، وساروا على غير هدى. كانت ذئاب الغابة تخطف كل يوم آخر من يمشي في السطر! كنا نحن عميان تلك القصة. الذئاب ترافقنا ونحن في ظلام تام. أحس كفّاً تمسك بظهري فأدرك أني لست الآخر. هناك أمامَ حافلةٍ بعد مسيرة متعبة أحسسنا بالويل. بل رأيناه أكثر من أيٍّ مبصر على وجه الأرض. سمعنا سحب بنادق فخيل إلينا أن حكما للموت ينتظرنا. صوت يحثّنا أن نتقدم خطوة إلى الأمام، وإذا بنا نُدفع داخل شاحنة. مكان آخر!!

حين أزيحت العصابة من على عينيَّ ارتحت كأنني أرى الدنيا كلها بنورها وشمسها وصحرائها وهوائها الطلق. سبعة أيام مرّت علي في ظلام دامس. أسعد اللحظات حين أجلس القرفصاء أجد فيها راحة من عذاب المحققين. فما أراه الآن ليس سجنا بل جَنَّة من نعيم يحيطني في أجوائها النور. الوقت قبل الظهر. عشر دقائق مرت ففوجئنا بجنودٍ سمحوا لنا أن نغسل أوجهنا بالماء البارد. أعطوا كلا منا كوبا معدنيا وكيس تمر. يبدو أنهم كانوا يرحبون بنا وعندما سألناهم أين نحن عرفنا أننا أصبحنا في سجن البصرة المركزي!

السجن المركزي في البصرة!

السجن الذي يطلّ على المستشفى الجمهوري!

إذاً كنت مخطئا في ظني فليس السجن الأول هو سجن البصرة المركزي الذي زجوني معصوب العينين فيه بل الآن أنا على بعد مسافة قليلة من مكان لفظت فيه أمي أنفاسها!

ثم مررنا بقاعات مربعة. مازلت بعد التعذيب العنيف محتفظا بقدرتي على التخمين وأظنني مصيبا حين أقول إن طول القاعة وعرضها ٣ أمتار في ثلاثة. هناك بطانيات وقنينة ماء وثلج. عبّأ كل منا بعض الماء في كوبه. لم يكن السجناء الخمسة من أهل التومة ولا أعتقد أني رأيت أحداً منهم قبل هذا اليوم ولعلّ كلّ واحد منا دلّك جسد الآخر بعد كل تحقيق لكننا بقينا متحفظين في الحديث يتحاشى أيٌّ منا أن يسأل الآخر عن اسمه وتهمته. وجه أسمر لجسد ذي سمنة لم تبن عليه آثار التعذيب. ووجه طويل ذو عينين عسليتين تثيران الشفقة. وكان هناك رجل في الخمسين بان عليه الإرهاق وارتسمت فوق جبينه هالة من الحزن. لاأشك أن التعب بان عليّ أكثر من السجناء الآخرين بحكم المرض وضعف بدني.

والحق أني بدوت وأنا أطالع شكلي في النور أشبه بشبح أو هيكل عظمي ولمّا أزل أشعر ببعض القوة فلم أتوجس من بدني أو أصب باليأس!

بعد ساعتين تقريبا حضر شرطي من أهل التومة. وجه مألوف أعرفه. فلاح حسن. شعرت بالطمأنينة لوجود شخص من أهل مجلتي في السجن. الرجل الثاني أقابله بعد المسؤول الحزبي الذي أجهل اسمه وأتبين ملامحه. كادت كلمة منه تجعل رصاصة تنطلق نحو صدري. مازال فيك أيتها التومة الخير الكثير. قال لي

فلاح إن شاء الله أساعدك فترة مناوبتي في السجن. أخبرته بمكان سكننا الجديد ورجوته أن يُطمئِن أهلي ولا بأس أن يحضر لي منهم بعض النقود. وفي العصر جاءت مجموعة جديدة من الموقوفين. سألني أن أصبح وسيطا بين السجناء وإدارة السجن. وظيفة تشبه مراقب الصف في المدرسة. أوصل ما يحتاجه السجناء إلى السجان وأبلغ المسجونين أوامر السجن. اعتذرت بحجة المرض عندئذ قال: سأكلف بالمهمة بدلك المفوض، ونادى بالاسم فأقبل إليه الضخم ذو الوجه الممتليء وكان ذلك أول اسم أعرفه من الجماعة الذين قضوا معي سبعة أيام في السجن السابق!

ثم استقبلت القاعة عشرين سجين آخر في مساء ذلك اليوم!

مر يومان كنا فيهما بأفضل حال. نذهب إلى المرافق وقتما نشاء. نتحدث مع بعضنا من دون أن نتدخل في التفاصيل. عرف كل منا اسم الآخر. جلب لي فلاح بعض النقود من أهلي. وبعد يومين انتهى دورالجيش وتولت مجموعة سيئة من على الشرطة مسؤولية السجن. فلاح انتهى دوره. كان هناك من يدخل القاعة فينهال علينا جلدا وركلا في أيِّ وقت دونما سبب. حين يسمع أي شرطي حديثا لنا أو نزرا من الصوت يقتحم الغرفة كثورهائج لا يتشفى إلا أن يهدَّه التعب من الجَلْد والرَّكْل، ومع قدوم سجناء آخرين بدأنا نشعر بالاختناق إلى درجة أني استفنيت عن لف جسدي بالبطانية عند النوم. وكانت أصعب الدقائق وقت الذهاب إلى دورة المياه التي بدأت تطفح كل صباح. الضرب يبدأ حين نخرج خمسة خمسة. المراحيض في صفوف متقابلة من دون ابواب. أجبرنا الحرس الجدد

أن يصحب كل منا كوبه لكي ينظف نفسه به. أمرونا أن نملأ أكوابنا بعد أن نفرغ من المرحاض، فكنا نقف بالدور أمام صنبور بالكاد يقطّر المياه. حين يمتلىء الكوب اضطر إلى الجلوس عند دكة الحنفية فأنظف نفسي على مرأى من الجميع. وتجرأ الوسيط المفوض السابق على الكلام راجيا الحرس أن يملأ كوبه قبل الذهاب إلى المرحاض فتلقى ضربة مهولة على ساقه وزجره الحارس:

-الكلب الأجرب لايغسل نفسه ولايحتاج إلى تنظيف الكلب نجس لئن تجرأت ورجوت ثانية أقسم أني أجعلك تخرأ وتبول على نفسك في القاعة! مفهوم؟

-مفهوم!

كنا نذهب بعد الفراغ من المرحاض إلى صنبور مياه في زاوية الممر فنملأ أكوابنا منه. ماء ذو لون أصفر مخضر. بقينا في هذا السجن تسعة عشر يوما. ولم تتوقف موجات القادمين. أصبح بعضنا ينام وهو مستند إلى حافة الشباك. وكان الحرس يستدعوننا فيجلدوننا واحدا واحدا بالأنابيب البلاستيكية لمجرد أن يسمعوا همهمة أو صوتا، فتحاشينا الكلام بالمرة. أفضل وسيلة هي الصمت. الصوم عن الكلام. السكون ركد على أنفاسنا وصمت مطبق برك فوق صدورنا، فأصبح كل منا يتحدث بوجه الآخر ويتخيل لصاحبه قصة شبيهة بقصته هو. ومما زاد في عذابنا أن الحرس أزعجونا بالتعداد. راحوا يعدوننا في اليوم الواحد أكثر من عشر مرات. مع كل ذلك فقد واتت الجرأة الوسيط ثانية على

إيصال طلبنا إلى حرس السجن. كان انقطاع الماء من الصنبور ذي الماء الأصفر المخصص للشرب مدة يوم مناسبة لمناشدة الحرس في أن يجدوا وسيلة نتمكن بها من الاستحمام. العصر وصل إلى القاعة "تانكر" كبير. ثم وقف المراقب وسط القاعة يبلغنا خبر الماء:

-الماء فيه زيت. التانكر أساسا لنقل الزيت، والأفضل لأي سجين ذي جروح في جسده أن ينأى عن الاستحمام بذلك الماء!

محال ألاتترك السياط بعض جروح على جسد أيّ منّا. كنا مجبرين على الاستحمام، ففامرنا جميعنا، وللمرة الأولى شعرت أن للماء وظيفة موسى الحلاقة. تقيحت بعدئذ أجسادنا وامتنعنا عن التأوه والشكوى والأنين خشية من العقاب. رحنا نملأ الأكواب بما تبقى من ماء التانكر، أما دورة المياه فقد طفحت وفاضت نجاستها فطفت على الممر. أصبحنا لا نجتاز إلى المراحيض إلا حين نمرّ على قوالب إسمنتية في حين يقف الحرس على الجانبين يوسعوننا جلدا ولعل أحدنا يختل توازنه فتزل قدمه عن القنطرة الإسمنتيه إلى المكان الفائض. الفرصة الوحيدة لديك كي تتبول أن تصيب ظهر الذي أمامك برذاذ نجاستك ثم تتلقى بظهرك نجاسة الذي خلفك. كان كبير الحراس يَعُدّ من الواحد إلى العشرة. وسرعة العد وفق مزاجه. مرة يعد عدا سريعا وتارة يلتقط أنفاسه بين رقم وآخر، والويل لمن لم ينته قبل الفراغ من العد.

أحد الأيام جربت حيلة الإغماء. فسمح الضابط -وكان حديث عهد -للمراقب أن يحملني إلى غرفة الأطباء وهم من

الموقوفين أيضا لكن الحرس عزلهم في غرفة خاصة. هناك في الغرفة بعض الأدوية الشائعة. باراسيتامول. أسبرين. لفافات. مادة معقمة. رش أحد الأطباء على وجهي الماء. اغتنم المراقب الفرصة وكرع من الإناء. ارتويت أنا أيضا. وعند عودتي من غرفة الأطباء عرفت جيدا أن الهرب محاولة أقرب إلى المحال. وإن عليّ أن أنسى كلّ شيء، ليست محاولة الهرب وحدها بل الأحلام نفسها والكلام. بعد يوم مثقل بالضرب والإهانة والتعداد المتكرر. وضيق التنفس ما على العينين إلا أن تغمضا لتصحوا في اليوم التالي. الخوف من الحلم نفسه. فترة جفاف في اليقظة والنوم وصوم عن الكلام خشية من زلة لسان وخوفا من أن نزعج الحراس الذين هم في نهم للضرب والتعذيب!

بقينا في سجن البصرة المركزي تسعة عشر يوما ثم نقلنا إلى بغداد.

كنا معصوبي العيون طول ساعات الرحلة. السيارة تهتز بنا وتتمايل. لا أحد يجرؤ على الكلام أو يهمّ برفع العُصابة عن عينيه. لقد أغلقوا باب الشاحنة فهل هناك عتمة أم بصيص ضوء يتسلل من فتحة ما. أشعر بضيق وحرارة. شيء اختناق في رحلة صمت بخلنا فيها على أنفسنا بالسعال.

ساعات طويلة لرحلة خيّم عليها الملل والخوف من كل شيء. من الكلام. السعال. التململ. الحركة. وفي سجن الرضوانية رفعوا العصائب عن عيوننا.

كنا نرى النور ثانية.

أسفر لنا الضوء فأنسانا لحظات الخوف من مجهول ينتظرنا بعد ساعات، فكدت أنسى كل ماحولي وماخلفته ورائي من خوف.

وسعلت أكثر من مرة لا رغبة في السعال بل لكي أصدق أن لي رأتين ونفسا يصعد وينزل.

كان معسكر الرضوانية مثل حوت هائل يفغر فاه فتمرّ من بين أسنانه الحادة حشود مرعوبة من سمك السردين. جهنم التي لاتشبع. ومجموعة من جنود وضباط ضخام ممتليئين تواجهنا. جيش. قوات خاصة. وفيهم من يهتف بلهجةٍ خمنتها من غرب العراق "عاش القائد صدام. إلى الجحيم الفرس المجوس" وزعونا على مجموعات. كل عشرة أشخاص. أصبحتْ مجموعتنا آخر المجاميع عند طرف الطريق أمام إحدى القاعات. رافقنا ضابط متورِّد الوجه يميل طوله إلى الوسط، وقفنا تماما أمام مدخل القاعة، والتفت إلينا يتمعن في وجوهنا لحظة ثم قال:

أنا صاحبكم. مسؤول عنكم. إحفظوا وجهي جيدا إلى حين أن أعود إليكم.

ظننا أننا نقف أمام القاعة المخصصة لنا لكن شلّة من ذوي الرتب الصغرى اقتادونا إلى قاعة أخرى تبعد حسب تقديري مسافة كيلومتر عن الجادة، وردهة مستطيلة بسقف من صفيح محدب توقفنا عندها، ثمّ دلفنا في قاعة ذات فتحات عالية قريبة من السقف أشبه ماتكون دكّاتها بسقائف الدجاج. تأملتها طويلا. ارتحت إذ وجدت الضوء يتسلل من الفتحات العلوية. فيما بعد عرفنا أن هذه القاعات كانت تضم جنودا من الأسرى الإيرانيين.

تذكرت أننا عندما سرنا من الجادة حيث وقف بنا الضابط مررنا ببركة للبول خلف قاعتنا. مستنقع الثلاثة أمتار. مرحاض مكشوف للملأ لفحت أنفي رائحته عن بعد، لا أحد يشكّ قط أنّ تلك الرائحة اللاذعة لا تلفح حموضتها الحادّة أنف السيد آمر المعسكر وكبار الضباط أو تستثني الجنود وضباط الصف. يمكن لتلك الرائحة أن تجعل الرتب الكبرى تصاب بالدوار ولايهم ذلك مادامت تبعث الغثيان فينا نحن السجناء. ثلاثة أمتار أراها عن قرب وما عليّ إلا أن أحفظ ملامح المعسكر بأدقّ التفاصيل لئلا أقع في خطأ ما.

حين دلفنا القاعة ارتحنا قليلا فقد تلاشت روائح البركة لندرك بعدئذ أنّ ما تخيلناه في دقائق لم يكن إلا وهما. سراب لاح لتائه في صحراء أمضّه العطش ذلك أن النتجات عند السطح تلك التي بهرتنا بالنور حالما دخلنا ظلّت تحمل روائح البركة فيتملىء بها جو القاعة الخانق المشبع بالنتانة والرطوبة!

وصاح بنا أحد الحرس:

كونوا بانتظار التحقيق!!

التحقيق ثانية ذلك عذاب قريب منك بعيد عنك يجعلك تحس ولا تحسّ بجسدك!

الأسئلة. الاستجواب. واحذر أن تغالط نفسك.

وماقلتُه في معتقل شط العرب ولهجتُ به في سجن البصرة المركزي تعيده كما هو وفق نشأته الأولى وإلا فأقلّ اختلاف يجلب علي الويل والهلاك. كنا بانتظار أمر آخر حين زج الحارس

معنا في القاعة بسجين من أهل التنومة. كان أستاذي للغة الإنكليزية في مرحلة الدراسة المتوسطة. وكنت أرسب في الدرس سنة ثم يساعدني في السنة الثانية. ولم يكن من ذوي السياسة. لا أعرف لِمَ اعتُقِل. دخل القاعة وقد بانت على وجهه آثار احتقان من التعذيب.

كأنني حين رأيته ابصرت الحريّة.

انفتح لي من حيث لا أدري باب واسع يراودني بالأمل والنجاة وخلاصٍ ذاتَ يومٍ لا أدري بأية صيغة يتحقّق فاندفعت نحوه هاتفا:

-أستاذي. أستاذي العزيز!

فاجأه وجودي، وحملق فيّ بعينين متوعدتين. كلّ ملامحه تلبست قسوة ونفورا لامثيل لهما ثمّ ابتعد عني كأنه يدفعني براحة يده زاعقا:

-لاتكلمني. لا أعرفك. أنت إنسان مشبوه. أنا بريء لاأرغب أن يلوِّث سمعتي شخص مثلك!

كن كأخيك أحمد ياعبدالله. أخوك خير كثير. عالم انتدبه الألمان إليهم. ليس قليلا على التنومة أن تعتز به فهلا اتخذت منه قدوة أنت الأقرب إليه. إن كنت أساعدك فإكراما له. الآن في هذا الموقف ينكرني. كانت صدمة قاسية حزت في نفسي وجعلت الشكّ يقبض أنفاسي والوساوس تجثم على صدري هل يفعلها أستاذ ساعدني ذات يوم ويثبِّت فِيَّ اعترافا يدينني؟.

هل لفتُّ نظره فذكرته بشخصي؟

وهل لفتُّ نظر الحرس؟

بقينا في القاعة أكثر من ثلاث ساعات خلالها كان يدخل علينا بين وقت وآخر أحد الحراس يلعن السادة، والمعممين والخميني وإيران والتحالف والكويت ولا ينسى السعودية وقطر، ويهتف باسم القائد ثم أخرجونا من القاعة إلى باحة مفتوحة، تبيّنت المكان جيدا. ساحة وسياج. وبعض شجيرات من الأثل، شجرة يوكالبتوس عملاقة، وثمة بين أشجار الاثل عريشة من الخشب. جلست مجموعتنا على حافة الدكة على بعد مسافة من صف الأشجار. نادى مَنْ باسم سجين فخرج من إحدى المجاميع شاب بدين البنية بانت على وجهه من أثر التعذيب زرقه واحمرار لم يخفيا خوفه وسحنة وجهه الصفراء، تركه الضابط واقفا بضع دقائق، في البدء صاح بأفراد مجموعة ثانية آمرا إياهم أن يضربوه بأحذيتهم وهتف بنا نحن الجالسين أن نبحث عن حبل. انطلقنا وخلال دقائق وجدت حبلا صغيرا وعثر السجناء الآخرون على بقايا حبال لأناس تم تعذيبهم من قبل. صرخ الضابط، فأثار فينا الهلع:

يا أولاد الكلب أهذه حبال تجلبونها لي والله لن يكون مصيركم بأفضل من هذا الكلب!

والتفت إلى أحد الحرس:

هات الحبل!

تقدم حارس أشقر اللون يحمل حبلا غليظا، واندفعت حسب الأوامر مجاميع من السجناء تربط يدي السجين وترفعه إلى العريشة. وثمة جنود يدفعون نحوه، جماعة بعصيٍ اقتلعها أصحابها من شجر الأثل واليوكالبتوس وكان للتوائها وقع الأبر، وجماعة

تجلد بالانابيب البلاستيكية. اضطررنا نحن الجالسين إلى أن نرجع للخلف تحسبا لفلتةٍ من أيٍّ عصا. كان الشاب أقرب إلى الموت. كأني سمعت صوتا يقول وربما راودني خيال لهمس مكبوت:

أعترِف! أعترِف سَأعترِف.

لم يلتفت إليه أحد ، فتيقنت أني لم أكن أحلم. أحضر حارس آجرة ثم هوى بها مرّاتٍ على صدره، فرفَّ رفَّة تأكدت منها أنه فارق الحياة. أنزلوه. وضعوه على منضدة وسط الحديقة ثم حضر أحد الأطباء ليقول بأعصاب باردة:

مات!

فعقب الضابط قائلا:

الله يرحمه!

عن بعد تناهت إلى أذني أصوات تقول: هذا اسمه بهجة الصباغ!

أصبحت أشكّ هل رأيته من قبل. قد يكون اسمه لاح لي في مكان ما بالعشّار. على لوحة محام. واجهة محلّ. طبيب، هل أشكّ في وشاية من أستاذي. الأمور تختلط في ذهني وتتوالى المشاهد أمام عيني:رأيت شابا منبطحا على الأرض يجلد من قبل شخصين، وآخر مربوط اليدين يُضرب. من مجموعتنا اختاروا أربعة أشخاص ثم قال لنا الضابط: تستطيعون أن تأخذوا أكلا. أحد السجناء من مجموعة سجن البصرة تملكته الجرأة فذهب نحو حرس يأكلون أمام مسطبة فعاد بقطعةِ خبزٍ مبللةٍ ببعض المرق فتجرأنا وذهبنا إلى ذلك الموضع. أحد السجناء الأربعة قدم يعرج مثلي لكن برجله

اليمنى. كان في حالٍ يُرثى لها فدفعتني الشفقة إلى أن أقدم له بعض الطعام. أكلت شيئا بسيطا سد الرمق. رجع اثنان من السجناء وضاع خبز الرابع فلم نعرف عنه شيئا، أما الضابط المسؤول عنا فكان يضرب بسلك كهربائي ويلجأ إلى قرص الآذان، وعندما انتهى من آخر سجين تركه إلى يوم غد، فأعرض عنا نحن الباقين.

كانت الساعة بحدود الرابعة حين رجعنا إلى القاعة. بقينا طول الوقت خائفين، وفي المساء قدّموا لكلّ سجين قطعة خبز من دون ماء. في الصباح وقفنا طابورا نحو دورة المياه. اخترت أن أكون ثاني الواقفين في الدور إذ أدركت أنّ الحارس يهوي بالضرب غالباً على أول شخص يقف في الطابور. أشار إلى إحدى القاعات الممتدة طولا باتجاه جنوب المعسكر. المكان طافح بالبراز أشبه بمستنقع تطفو فوقه أشنات ذات ألوان بنية فاقعة وخضراء. ولم يكن لدينا ماء. هناك من يعد من الواحد إلى العشرة. أي سجن نمر به يحشروننا بين الواحد والعشرة. أفرغ السبيلين إن لم تجد ماء يمكن أن تقص قطعة قماش من بجامتك، والرائحة الكريهة تلاحقك. ربما لو أدركوا أن الرائحة الكريهة تملأ رئتيك إلى حد تدفعك فيه للإغماء لاستغنوا عن العد فأبقونا في دورات المياه وقتا أطول. عند العد الثامن تعود للطابور، أما العصا فراحت تهوي على من يتأخر، ومن حضر دورات المياه إلى حنفيات الماء. العد إلى الثلاثة. كان الحارس يقف على بعد خطوات منا والحنفيات أمامنا. لاأدري ماهو طعم الماء. مرّ حلوٌ. لا أفكّر قط بالمذاق. المهم أعبّ قبل أن ينتهي

العد. ربما نسي أحدنا نفسه وهو يكرع الماء فأصابه من الضرب بقدر ماعبَّه من جرعات.

حالما رجعنا نادى الحرس باسمي. هذا يعني أني سأقابل الضابط. دخلت غرفة تتوزع فيها هواتف آلية. وعلى الممر من اليمين واليسار انتشر حرس مدججون بالسلاح والعصي. كان كل حارس يقف مسافة متر عن الذي يليه. مهمة هؤلاء أن يهووا على أي سجين يمر بالعصي حتى يصل إلى غرفة الضابط المحقِّق:

ماذا تريد؟

إلى سيادة الضابط!

أشار بالعصا نحوالمدخل أول الواقفين في الصف، ولم يكن هناك طريق آخر، فتلقت ساقاي وظهري وكتفاي لسعات العصي من الجانبين. وجدت في الغرفة المستطيلة سجينا آخر معلقا على الباب الجانبي للغرفة وضابطا يستنطقه. في لحظة وصولي أنْزِلَ السجين إلى الأرض. وفجأة هوى الضابط بعصا مدببة على رأسه. كانت المسافة بين الضابطين لا تتجاوز المتر. أنا أمام رجل عملاق أسمر البشرة ذي كرش وشاربين كثَّين. رأسي بين رجليّ. ضرب لحظات. دقيقة. دقائق. رجلي العرجاء مازالت بخير.

-عبد الله عبد الرحيم؟

هل يسألني عن تفيدة وعبد المعطي:

-نعم أنا؟

-شغلك؟

موظف في مديرية العدل.

أنت الولد الوحيد لوالدك؟

-كلا لي أخ!

ماذا يعمل؟

-أستاذ في الجامعة أستاذ في الفيزياء!

-أين هو؟

في ألمانيا؟

-معارضة؟

-كلا سافر بعقد دراسة وعمل!

كان يضرب على منطقة الظهر مع كل سؤال، الحقيقة لم تكن يده يد بشر، كانت أقرب إلى يد دب أو حيوان ضار بل لا مغالاة حين أقول إني رأيت كثيرا من الحيوانات المفترسة ترخي قبضتها عن حيوانات لاتقتنع بها، وهذا العملاق ينظر إلى جسدي ولوني الفاقع ولا أشك أنه يتجاهل رجلي لكنه لايوقف قبضته فلا تعرف عصاه المدببة مساحة خالية من ظهري تتغافل عنها:

-تكلم ماذا فعلت!

سجن شط العرب قصة تنيدة أمي وأبي عبد المعطي، سجن البصرة المركزي الذي صادرته دائرة الأمن، لاتضارب في الأقوال فلأصرُّ على أني ذهبت شحاذا أطلب إحسانا من الخبز لاغير:

-تعترف أنك ذهبت إلى المسجد؟

أعترف أني هرولت برجلي العرجاء إلى المسجد المجاور لبيتنا حالما سمعت نداءات من مكبرات صوت في العشار تعلن نهاية النظام، ولو كان هناك بيت أقرب إلى الجامع منا لاغتنم غيري

الفرصة قبلي. منذ أن غادر الشيخ الإمام التّومة خلال حرب العراق وإيران ولم يعد أصبح بيت الله خاويا. يفتحه كلُّ منْ يشاءُ الصلاة من كبار السنّ، ويسبق غيره يصبح هو الإمام. ركلت الباب برجلي فاستعصى، ووضع صهري كتفه في المصراع فتزحزح من مكانه، وجاء كامل الرامي بعد ان سمع النداء، فهل ألف الحبل الغليظ على رقبتي:

-آخذ خبزا فقط!!

شعرت بالراحة ثانية، وأنا اخطف نظرة إلى السجين الآخر، فقد تركني الضابط لحظات وخرج لأمرٍ ما. كان الدم يقطر من إحدى عينيه ومن خلال ثقوب ثيابه. السجين الآخر شبه ميت. أو هامد هكذا انطبعت عيني عليه لكنه من شدة الضرب لاسيما آخر هراوة يتلقاها أجده ينقذف باتجاهي كأن قوة خفية انتزعته من الموت ونفخت فيه إرادة الحياة فيستقر عند الزاوية على بعد خطوة مني. الضابط الآخر صاح بي زاعقا:

احمله وعد به إلى مكانه!

التفت إلى رجلي الأخرى أستعين بها!

حاولت أن أزحزحه. كان ثقيلا جدا. رجوته متذللا أن يحرك جسده قليلا لأنني سأقع تحت طائلة الضرب. تحامل على نفسه محاولا أن يستند إلى كتفي وأنا أستجمع قواي كي أوصله إلى مكانه ومن خلفي الضابط يوجه عصاه مرة نحو ظهري وأخرى إلى السجين، وربما كانت يداه تتحركان من دون أن يفكر مَنْ يضرب منا فقد مست إحدى ضرباته الضابط المسؤول عن التحقيق

معي وهو يجتاز الباب إلى حيث مكانه عند الطاولة فزعق فيه فأدركت أنه أعلى رتبة منه:

-لاتكلف أيا من الذين أحقق معهم بأي عمل!

قال عبارته وهو يصب جام غضبه على جسدي، ويباشر التحقيق معي من جديد:

-أنا مسؤول عنك وأستطيع أن أرسلك إلى حبل المشنقة!.

-لكنني يا سيدي لن أخفي عنك شيئا. ماذا أفعل؟الغوغاء صادروا كلّ شيء ولن تحصل أية عائلة على خبز وبعض السمن والسكر إلا أن يذهب أحد منها إلى الجامع، فمن يترك طفلا يبكي من الجوع وطعامنا بيد عصابة تحتل المسجد؟! "وعضضت على شفتيّ أتشبث برجاء عابر" حتى بيوت الله استغلوها!

واستلم نداءا عبر الهاتف فرفع السماعة وهو يقول:

-أنا أنهيت التحقيق مع أحد الغوغاء وسوف أكون عندك بعد أن أفرغ من التحقيق مع جماعة ماكو ولي إلا علي!

التفت إليّ حالما وضع سماعة الهاتف:

-هل تعرف استخدام السلاح؟

-أبدا لا أنا!

-وإذا ظهر عكس ذلك؟

-سيدي أنا معاق غير مسلح لا أعرف استخدام المسدس والرشاش وأية قطعة ولم أتدرّب قط وهذه رجلي تثبت صحة ادعائي.

-أية معلومات تصل عنك تجعلنا لانحقق معك بل ستُعْدَم في

الحال.

وأكّد وهو ينظر إليّ بتشف:

-أقضي عليك. بشرفي أقضي عليك.

رحت أراهن على إفادتي وعلى عقدة فهمتها الآن جيدا: السندباد عقدة سمعت بها من معلم الابتدائية. عقدة مشوشة صعب عليّ وقتها فهمها ورجلي التي أحرجتني عقدة يمكن أن أفخر بها الآن فَتَمُدّ إليّ عوضاً عنْ يدي حبل نجاة:

-أنا لم ألمس بندقية في حياتي ولو لمستها لأكون ربما أطلقت النار على نفسي من غير أن أعرف ومعي برهان يثبت براءتي هو عوقي.

خرجت إلى مكان التجمع الأول عند الساحة ولم أسلم من ضربات الحرس المصطفين أمام غرفة الضابط، فوجدت نفسي في بركة من الدماء. وصلت إلى المكان وقد أغمي عليّ. بعض ممن ينتظرون أدوارهم في التحقيق مسحوا عني الدم، وحين استعدت وعيي أبصرت في الساحة عددا من الحراس يعذبون بعضا من المساجين، ومجموعة ترقص بوحشية وتشفٍ حول جثة شخص. صحبني الحراس إلى القاعة. أحد المسجونين قدم لي ماء، ومسح آخر آثار الدم عن جسمي.

كان هذا يعني انقضاء يوم من التعذيب وأني سأواجه يوما آخر مثله أو أَشَدَّ منه. الجلوس صباحا. دورة المياه. التعداد اليومي. العدّ إلى العشرة. العدد والحساب يلاحقاني أينما ذهبت. في الحرب كنت أعد القذائف، وهنا الحرس يعدّون مدّة الخراء والبول. كل

دقيقة تنزل قذيفة مدفعية على البصرة ومن المضحك المبكي أن يكون البول والخراء أكثر سرعة من قذائف المدفعية. أرقام مهزلة لكن الحلم الذي اختفى وانمحى تماما عاودني الليلة الأولى بعد ذلك التعذيب المرهق. زارني كامل الرامي وكنت يومها أشعر بمرارة الماء في فمي، فذكرني بمقولته الشهيرة. كل شيء مرٌّ نقرف منه أيّ مشروب نحبه حلوا ماعدا العرق. لانقبل معه ذرة سكر، وهذه خصلة انفرد بها العرق وحده وأضاف ساخرا: لن يجدها الشيخ في أي كتاب قديم وإن بحث في أسد الغابة أو كتب الصحاح. أما أنا فمازلت مصرا على قولي لن أبدّل أقوالي قط. دعهم يلغون سورة الكوثر عندئذ أقسم أني سأواضب على الصلاة، وأترك العرق وأي مشروب مُرّ، حلم غريب فأنا لم أذق الخمرة سوى أني أشرب ماء مرا أو قد يكون فمي مرا من شدة الضرب، وأحيانا يهرب المذاق من لساني، وكل ما أخشاه أن يهاجمني تململ رجلي التي أضحت مرة مثل عَرَقٍ سيرٍ في مَرَارته.

بقينا في هذا المكان عشرة أيام، اصطفاف وقت الضحى والعصر. الغداء صينية فيها رز مبلل بالمرق وقطعة لحم صغيرة. الليل أستلم خبزة وأحيانا صمونة. عشرة أيام تلقينا خلالها الجلّد عند الاصطفاف صباحا والتعداد وقتي الضحى والعصر ثم أخرجنا الحراس إلى ساحة معتقل سجن الرضوانية. في ذلك المكان احتشد عدد كبير من السجناء، كنا نلتقي من دون أن يُسْمَحَ لنا بالكلام. منحنا الحرس حرية الجلوس أين نشاء وشراء بعض اللوازم من سيارة انقلبت إلى حانوت يبيع صاحبها الطعام

والمشروبات للجنود. على بعد أمتار مني رأيت مفوضا من أهل التنومة يبدو أنه شارك في الانتفاضة ولم أنتبه له في حينها. لاح لي في حال يرثى لها، تعمدت أن أَتَزَحْزَحَ عن مكاني فأَدْنوَ منه. تطلعت في عينيه فنظر إلي ولصق إصبعيه بشفتيه. فهمت أنه يسألني عن سجائر. رافقني أحد الحراس إلى السيارة فاشتريت بعض البسكويت وعلبة سجائر وكبريت ثم رجعت إلى المفوض فوجدت أن أحد السجناء شغل مكاني، لم يكن بإمكاني أن أقدم له العلبة أمام بصر الحارس لكني حين مررت جنبه أرخيت يدي فانبسطت أناملي فسقطت العلبتان في حضنه.

كان هذا آخر لقاء لي بذلك المفوض.

ولعلني من دونما سبب شعرت بفراغ. لم يكن بيننا من قبل سوى تحيّة الطريق كأي من الوجوه الكثيرة التي أقابلها في التنومة ممن أعرف أسماءهم أو لا لكني شعرت أن وجود هذا المفوض معي وسط الحشد المضطرب الصاخب الصامت يخفف من هواجسي، ففي اليوم ذاته ركبنا الشاحنات واتجهت بنا إلى مكان آخر يطلق عليه السجن.

هناك تمت تسميتنا باسم مجموعة البصرة. كنا بحدود ٣٠٠ شخص. وزعونا على غرف صغيرة كل غرفة لاتتجاوز الستة أمتار. كان الممر ضيقا والمرافق لاتفي بالغرض ثم جَرَّدَنا الحرس من كل أوراقنا الثبوتية. سلمت دفتر الخدمة العسكرية الذي احتفظت به طول تلك المدة وكانت تنقصه ورقة من المنتصف إذ لم أتحمل في الرضوانية ذات يوم من دون غسل بعد المرحاض فاقتطعت من

الدفتر ورقة تطهرت بها.

وفي هذا السجن عادت المأساة نفسها بشكل أكثر قسوة. النفوس أيضا تبدّلت. حاول القوي أن يأكل الضعيف. والصحيح يستولي على المريض. قطعة لحم أو دجاج نصيب ٣٠٠ سجين. ملعقة رز عند الظهر. الصبح صمونة بحجم الكعكة. الوجبة الواحدة ينهشها خمسون شخصا. بقيت معي بضعة دنانير اشتريت بها كيسي تمر فتقاسمتها أنا واثنين معي. كل وجبة نأخذ تمرتين. فترة قصيرة وانتهى التمر. كأس ماء ربع للغسل وثلاثة أرباع للشرب. في الليل البرد يثبُّ مثل دبابيس تنغرز في جسدك. تساوت حدة الوخز بجسمي كلّه. قدمي المعاقة آلمتني مثل بقية أعضائي. الليل كله ألتمس القمل يسيل على رأسي فأراه بعيني! احفظت درسا جديدا انهمكت عليه في الظلام: القمل أسود وأصفر! الأسود يداهم شعرك والأصفر يتخذ من جسدك ملعبا له. يجب أن يكون هناك من يضايقك وأنت نائم أو أنت تفسك تضايق شخصا آخر. وعندما كان الحرس يخرجوننا بضع دقائق إلى الساحة حيث الشمس كانوا ينهالون علينا ضربا بالهراوات إما من دون سبب أو يختلقون أي عذر كان فيروحون يجلدوننا بكل قواهم ونحن نتراجع إلى الخلف فنحشر أنفسنا في زاوية بين حائطين في حين يستمر اندفاع الحرس نحونا كأنهم لايقتنعون إلا ونحن نزج بأنفسنا في أصغر رقعة بين الزاوية والساحة!

في هذا السجن تلك الليلة داهمتني موجة ألم ربما بسبب البرد ولعله الضرب المتواصل الذي أتعرض له كل يوم. بقيت أصرخ طوال

الليل. تتناوشني من غير أن أحس ركلات السجناء المحيطين بي.

لقد طغى ألم رجلي على جسدي كلّه.

تساوت في الوجع أطرافي.

فظننت أني أصبت من الضرب والبرد برومانيزم!

وقت الظهر حين قدمت سيارة الطعام قال الضابط:اليوم يفحصك طبيب. هذا كلّ شيء. بقيت مهملا في الساحة أكثر من ساعة. ولم يكن حضور الطبيب كافيا كي ينهي الأزمة فقد أخبر إدارة السجن أنه لايملك أيَّ علاج لحالتي. ازداد صراخي وتفاقم الألم. زاده حدة الحرمان من الدواء المهديء، وبينما أنا مضطجع في الساحة الداخلية أتلوّى ولا من مجيب إذ تماوج الحراس مثل بحر هائج تضربه عاصفة هوجاء وهرعوا لأمر ما فقرعوا حولنا طبول النفير وانقضّوا كالإعصار على الردهات يخرجون منها السجناء في حين انصاع سجينان لأوامر بعض الحرس فحملاني متجهين بي إلى الساحة العامة عند المنضدة حيث الفلكة الدوارة. رأيت حراسا آخرين مدججين بالسلاح كالحي القسمات فأدركت أن حَدَثاً جليلَ الشّأن يَجري.

مشهد يخفّ عِندَه بعض الألم في عظامي أو أكون مجبرا على أن أوقف صراخي لئلا أثير حفيظة مسؤول أو غَضَبَ حارسٍ فينهال علي بعصاه وقدميه، وفي أسوأ الحالات يتهمني بالتمرد.

أمام فسحة مقابل المنضدة وضعني السجينان عند حافة الآجر والمجرى المزروع ببعض الحشائش. كان هناك حلقةُ حرسٍ في المقدمة يأتي بعدها حشد المساجين ثم حلقةُ الحرس المحيطين بنا.

لحظات واتجهت أنظارنا إلى رجل صارم القسمات استدعى أحد الضباط فانصاع متجها -بعد أن أدى التحية -نحو المنصة. لوّح الضابط بعصاه فبرز من خلف الجدار أربعة من الحرس يسوقون أربعة سجناء موثوقي الايدي، لايجرؤون على رفع رؤوسهم أو النظر إلى مايجري حولهم أوقفهم الحرّاس أمام المنصة، فأدركنا أن حكما بالأعدام ينفذ بعد قليل!!

هو ثاني حكم بالإعدام يجري أمام عيني.

نسيت كل شيء تماما فانا في هذا الوضع واحد من هؤلاء. إن لم أكن أنا اليوم فربما غدا. شهدت موتي في التتومة حين قدمت فرق الموت الخاصة بهاربين من الحرب لتعدمهم في ساحة سوق الخضار، نعم رأيت مصرع راجي المزروع لكني لم أكن حاضرا ساعة تنفيذ حكم الإعدام بحقه. سبقني أصحاب الأرجل السليمة وآخر المطاف قرفت من شخص يتبول على جثة. هؤلاء خونة هربوا من خطّ المواجهة. صدناهم في "الشلامجة". الآم تحدق بعظامي جميعها وأكظم صرخة تهز أعماقي. هل ألفت النظر وأثير سخرية الحرس ومن الجائز أن تفسر صرخاتي تضامنا مع هؤلاء فأوضع معهم دون أن يكلف أي من ذوي الرتب الكبيرة نفسه فيسأل لحظة الواقعة عن سبب صراخي. فأعض على أسناني أكبح جماح تيار من الوجع حين سمعت زعقة الضابط:

ارفع!!ارفع!!

كاد الحراس الأربعة يقتلعون السجناء من أماكنهم لولا زجرة حادة من الكبير:

لا ملازم داوود يجب ألا يموت الخونة في الأماكن العالية!!

وردّ الملازم داوود:

نعم سيدي فكرت أن يراهم الجميع "واستدرك" نعم سيدي مثلما تأمر!!

فقال الكبير مُطَمْئِنا المحيطين به:

أظن أن جميع السجناء سيرونهم!!

وأنا أكز على فكي من الألم أجد الضابط ينسحب للخلف ويتراجع الحرس خطوة للأمام. يخيم صمت ويصدر الضابط أمره:

رشقا بالرصاص على الخونة ارم!!

انهال على السجناء الموثوقين أمام المنضدة رصاص البنادق فمالت رؤوسهم نحو أكتافهم وتهاووا على الأرض وكنت أكبت الصراخ.

يتوقف الألم في جسدي بمعجزة موت يحلّق أمامي غير بعيد عنّي.

رجلي تنزع الخدر. وأحمدالله أني لم أصرخ.

في تلك اللحظة دارت في رأسي ظنون مختلفة. احتمالات يمكن ان تحدث لأي سجين. إما أن يكونوا اعترفوا أو اعترف عليهم آخرون، وليس ببعيد أن ألتقيَ مرة أخرى بموقوف من أهل التنومة أذكّره بي فأسير إلى حتفي برجليّ لكن الضابط قطع كل ظنٍّ حين التفت إلينا محذرا:

اسمعوا هذا مصير كل من يحاول الهرب!!

لم أكن أتوقع في حينها أن الذين أعدموا حاولوا الفرار من

السجن فالهرب يعني لحظة جنون لاتختلف عن الانتحار. كاميرات وأسلاك. نقاط تفتيش وحرس ثم شاع فيما بعد حين خفّتْ حدة العذاب وبُدِّلَ المسؤول بغيره أن الأربعة اتفقوا مع المراقب وكلهم من قاطع البصرة على الهرب فخشي الأخير سوء العاقبة ووشى بهم ليهلكوا وينجو هو بعد حين!!

وتبقى كل تلك القصص مجرد تخرصات!!

كلّ منا يهمس لنفسه بقصة، فيظن بمرور الوقت أنها من رفاق السجن، كان كلّ منا يسمع حديث رفاقه مع أنفسهم، ويقرؤ ملامحهم فتتحوّل في ذهنه إلى قصص وحكايات. بعد ساعة من حضور الموت أمام أعيننا حتى كاد يدخل فينا جميعا رجعنا إلى الردهة، فرماني السجينان في الساحة الداخلية كما لوكنت أكثر عبئا عليهما من أيّ ثقل حملاه. بقيت إلى العصر أصرخ من الألم، وحين وصلت سيارة الطعام شحنت فيها إلى مستشفى الرشيد العسكري!

لاأدري ربما هو سوء حظي جاء بي إلى هذا المكان!

لقد فضلت لو تحملت الالم وبقيت في السجن ذي الرقم (١).

كلّ شيء يوحي بالعذاب والعنف والبرودة والرطوبة، فأي مصير ألاقيه في هذا المكان المخيف الرهيب. هنا واجهتني ردهات تضمّ كل واحدة منها خمسة مرضى ظلوا جميعهم مرتمين بين الأسرَّة على الأرض. تركتني الحارس في الردهة المحاذية لباب الممر ودخل إحدى الصالات. كنت أصرخ من الألم فسمعت همسا من حولي:

لاتصرخ!

وقال صوت خافت آخر:

حاول أن تكبت الألم.

لا تصرخ وإلا.

لم أتبين من تحدث معي، فالحارس ذهب يخبر عنّي نائب الضابط. كان يتناول طعامه ويبدو أنه اعتاد أن يضرب أي مريض يصرخ في أثناء الأكل. حملني ثلاثة سجناء إلى غرفة نائب الضابط وعاود أحدهم الهمس في أذني:

حذار اصمت!

أسكت!

تحمّل مهما يكن تحمّل ولا تصرخ!

بقيت أمام عتبة الباب أبحث عن مكان المرض في جسدي. رجلي يداي. الضلوع. أشكّ في جسدي كلّه. راح نائب الضابط يلوك اللقمة ويتطلع إليّ ثم صاح بي أن أخلع ملابسي وأستحم قبل أن أدخل عليه. كان الحمام المقابل لغرفته من دون باب. الوقت غروب والطقس في بداية شهر مايس ما زال باردا. فتحت الدوش وباشرت الاستحمام. والرجفة تهزني مثل محرك مستهلك. كان ينظر إليّ ويأمرني بين حين وآخر أن أستدير وإذ أنهيت الاستحمام رمى إلي بطانية لم تكن لتخلو من القمل. جلابية ليست بذات جيوب وأكمام ومن غير أزرار. وضعني عند الباب المطلّ على الحديقة ومنع أي أحد أن يتصدق علي ببطانية. كنت أرتمي قرب باب الحديقة وأنا أرتجف من البرد والألم. آلام فظيعة تطبق على

عظامي. نسيت رجلي تماما تعودت معها على الألم، وبدأ صليل العظام. لم أتحمل فسحلت نفسي باتجاه الردهة راجيا السجناء أن يعيروني بطانية. في البداية قابلوني برفض قاطع تردّدوا ثمّ لانوا. شفقةً. تأثّراً لحالي لايهمني سوى أن أحيلّ بين جسدي والبرد. وغاب عن ذهني لحظة هياج الألم أن الشفقة ستنقلب سوء عاقبة على مساجين معي. بعد عشر دقائق رجع نائب الضابط. كنت أرتجف تحت البطانية عندما أحسست بركلة هائلة اقتلعتني من الخاصرة:

من أعطاك الغطاء؟

قلت بصوت واه:

أنا تسللت إلى الردهة فسحبتها وهم نائمون.

عنّفها، و انهال علي ضربا ثم اندفع إلى الردهتين حيث أخذ يضرب السجناء الباقين، وعاد إلي وهو يزعق بأعلى صوته:

استحم مرة ثانية!!

رافقني إلى الحمام، وكنت أرجوه أن يتركني. خجل، برد وألم. بقيت ألتفُّ حول نفسي عاريا تحت شلال الماء حتى اكتفى فانهال علي ضربا وركلا ثم أمرني أن أرتدي الجلابية. وأقبع في المكان نفسه وقال حالما خرج وهو يلتفت إلى نزلاء الردهة محذّرا:

لاتعطوه أيَّ غطاء!!

أريد أن أفقد الاحساس فلا يغمى عليّ. أطنان من الوجع تداهمني، وآلام. غثيان وتعب. ألفُّ حول نفسي كمغزل. برد. أين هو شهر ماي وبداية الحر في البصرة. شهران تموز وآب. بعيدان عنّي. بأيّ شهر أستغيث. أين هو الحرّ أم يدات أهذي. في هذه

اللحظة اختفى تموز. تلاشى آب. فمتى يُغْمَى عليّ. أدخل في غيبوبة حتى أفقد أوجاعي لكني لا أدري أهي لحظة الخدر أم الموت. قد تكون لحظة فقدان الإحساس بالألم. غاية ما أذكره أني كنت أرتجف من البرد، والجلاد ينظر إليّ. ظلّ يتأمّلني بضع دقائق بنظرات حادة تجاري ما أنا فيه من وجع ثم خرج!

وقتها تلاشى الألم من جسدي.

غيبوبة كاملة وصوت يحضّني لأمر ما:

-إجلس إجلس إنه موعد الفطور.

أحد السجناء بيده براد شاي. وأنا مشغول تماما بأعضائي التي فقدتها ليلة أمس. لو لم تكن لدي أطراف لكنت مرتاحا على الأقل من الألم الحاد القاسي. لاسكاكين تقطّع في لحمي. لا ألم. لاوجع سوى خدر خفيف يدب من يدي اليسرى. كنت مسدوما بالحياة الجديدة في جسدي. ومصدوما برجلي العرجاء التي سكنت قبل غيرها من أعضائي. شخص آخر أنا. رجلٌ ثانٍ أنا هو. انصرفت عما يدور حولي مشغولا بجسدي الجديد بل لا أبالي بلسع السياط والتعذيب. دمي لايؤلمني. أفكر بنفسي. كيف تتأرجح الروح على حبل دقيق من الألم والتعب فتحتفظ بتوازنها بين الحياة والموت. مثل بهلوان السيرك. توازن. انهيار. حمام بارد طالت مدته وطالت. برد وحمام آخر. نوبة وخز. طعم الموت يتلجلج على فمي بعدها نوم عميق على البلاط المكشوف. لاأعرف هل صرخت أم لا؟وسجين الزنزانة الغريب عني يقدم لي قدحا من الشاي. التفت إليه لحظة استوعبت صدمة بقائي حيًّا على البلاط واختفاء آلامي

ماعدا خدرا لذيذا يدب في يدي اليسرى ووجعا خفيفا يكاد ينسل من قدمي:

-تفضل اشرب!

شاب أسمر نحيف البنية. بدت الطيبة تنضح من عينيه الوادعتين المشبعتين بصفرة تنبيء عن يرقان أو مرضٍ في الكبد. كرر بابتسامة تكاد لاتبين:

خذْ هذا من الجنود!

إنها الجنة تقدّمُ لي برياحينها ومائها، أنهارها وعسلها أم الملائكة. وصوت الشاب النحيف يردد:

-بقيتَ طول الليل تئن أنينا أشبه بالهمهمة وعندما سكتتَ قبيل الفجر تحركتُ لأتأكدَ من أنك متَّ ولم أكن أصدق عينيَّ أنك نائم. كنت تتنفس!!

وابتسم كأنه مأخوذ من الدهشة أو الصدمة:

-الحمد لله أنت حي مثلنا!

شاي ومربى وصمون!!

إذاً أنا حي وللجَنّة طعم آخر، وهي المرة الأولى التي أذوق فيها طعم الشاي منذ سجني في البصرة. كنا نحصل على الشاي من الجنود الذين عاملونا بلطف ورحمة. بقوا طوال الوقت أليفين معنا ثم بدأوا يكلفوننا ببعض الأعمال. تنظيف الحمامات. ترتيب الساحة. غسل الصحون. أروح أرمي الأزبال أو اقتلع الحشائش والأعشاب المتناثرة في حديقة المعسكر بيدي مقابل أن نحصل على الطعام من الجنود ونستحم في الحمامات أو نؤدّي تلك الأعمل مجرد

الرغبة في التغيير وطرد الملل!!

كل ذلك يجري من دون علم نائب الضابط!

وأية مساعدة تقدم لنا من الجنود تجري في السر بعيدة عن أنظاره.

وخلال تلك الفترة عرف كل منا اسم الآخر. الشاب الذي قدم لي الفطور أول مااستفقت من نوبة المرض اسمه كامل من الناصرية. اسم معلمي كامل الرامي يلاحقني أينما كنت. هناك رائد من الكوت، وجيلان الحلي. مجرد معرفة أسماء وتبادل ابتسامات، والدعوة إلى العمل، وتناول الطعام فقد تحاشيت - شأن أي معتقل -أن أسأل أحدا عن سبب وجوده أو تهمته أو أيٍّ مرض يشكو منه فكلّ منا يمكن أن يكون وفق تصورالسجناء الآخرين مُنْدَسّاً وإن تعرض لتعذيب علني. هنا في السجن كل يعرف حدوده فيتوجّس من أيٍّ كان، على أن راحة نسبية ننعم بها ولو إلى حينٍ لاتعني انتهاء التعذيب، فقد كان نائب الضابط يمرّ بين فترة وأخرى فيجلدنا بقسوة وغالبا ماكان يزورنا وقت المغرب ولايغادر إلا بعد الساعة التاسعة، وفي أثناء حضوره لم نكن لنجرؤ على النوم فوق الأسرة وإن كنا مرضى إذ ارتآى أن نضطجع على البلاط تاركين أسرتنا فارغة مادام هو موجودا ثم نصعد إليها حالما يغادر!!

والوقت يمر وأنا أنتظر الطبيب!!

وبيمنا نحن نَتَرَقّب العلاج. زُجَّ معنا في الردهة بشخص طاعن في السن ظل يتكلم ويغيب عن الوعي، في اليوم الأول لوصوله رجوته

أن يأكل. ألححت عليه فكانت نفسه تعاف الطعام، وفي الصباح أعرض عن الأكل. تركته جالسا في مكانه، وعدت وقت الظهر ببعض بيضٍ من الجنود. ذهبت إليه. قربت لقمة من فمه، وتوسلت:

-منذ البارحة لم تأكل!أرجوك!

وحالما وضعت يدي على كتفه تهاوى مثل كدس رمل على الأرض. طلبنا من الجنود أن يبلغوا نائب الضابط بوفاته فحضر ووضع على جبهته رقما. "١٤" ثم أمرنا بحمله إلى خارج الردهة!!

ثاني يوم ورد إلى الردهة سجين آخر!!

شخصٌ بحجمٍ غيرِ معقولٍ لم أدر أن وزنه الثقيل سوف يصبح عبئا علي فيما بعد!

ويبدو أنه لايحب الأكل أيضا حتى أني عجبت كيف استطاع أن يحتفظ بجسامته تحت وطأة الجوع والتعذيب!

همست في أذنه:

-كل عليك أن تأكل وإلا تموت!!

وقال كامل راجيا:

-كان قبلك هنا في هذا المكان شخص مات لأنه لم ياكل!!

ويبدو أنني خرجت عن الرجاء إلى التحذير:

-أتظن أنك مضرب. الإضراب يعني تعرضك للتعذيب أو الموت! هل تحب أن تكون صاحب الرقم ١٥؟

-كل أرجوك. أرجوك.

-كل الله يخليك!

لكن السجين ضخم الجثة ظل معرضا عن الطعام حتى اليوم

التالي إذ قيل لنا أن موعد الفحص حان، فغادرنا من الردهات في شاحنات مقفلة إلى الجناح الطبي. في البدء تولى فحصنا من دون سماعات من ظنناه طبيبا مختصا. راح يجسنا بأصبعه ثم عرفنا أنه مفوض تابع لدائرة المخابرات. أدخلنا الحرس إلى غرفة وأخبرونا أن الطبيب في الطريق إلينا، وحين حضر مرَّ بنا على عجل وكتب لكل منا ما هو بحاجة إليه من دواء لكن الدواء لم يصرف لنا. كان كُلُّ شيء يسير على مايرام حتى توقفت بنا الشاحنات عند الباب العام الموصل إلى الردهات هناك وجدنا نائب الضابط ينتظرنا. وقف حيث نهبط يلوِّح بعصاه وكل من يتأخر يتعرض لسيل من الضربات، وعندما سقط السجين الضخم ولم يتحرك صاح بي أن أحمله وهددني بالضرب إن عجزت. حاولت أن أزحزحه من مكانه فعجزت وخارت قواي وحدثتني نفسي بالهرب فأطلقت لساقيَّ العنان من غير أن أحسّ بعوقي، فوصلت إلى الغرفة وأنا ألهث من الإعياء في هذه الأثناء تجاهلني نائب الضابط وهوى بهراوته الغليظة على ظهر السجين الضخم!!

ضربة واحدة لو كانت وقعت بي لخمدت على اثرها أنفاسي!!

تصورت أن لها صدى يرن في أذني ووميضا يقدح من حجرين يتصادمان. فجأة. زعق السجين الضخم زعقة رهيبة ونطَّ مثل الأرنب باتجاه البوابة فمرق كالسهم من جنب الحارس ويبدو أن شهية نائب الضابط كانت في ذلك اليوم مفتوحة للتعذيب، فدخل خلفنا مباشرة وأخذ يضرب فينا يمينا وشمالا إلى أن اكتفى فارتمى على كرسيه في الغرفة المقابلة وهو يتطلع إلى عصاه!!

أو ربما جلس يلهث كأنه هو نفسه تعرض للضرب!

وجدنا حال عودتنا شخصين جديدين أضيفا إلينا نحن السجناء في ملحق المستشفى العسكري أحدهما يعاني من كسور في يديه وآخر مقطوع الرجل من فوق الكاحل. وقفنا عاجزين تماما عن فعل أي شيء لهما. حالما غادر نائب الضابط قدم لنا الجنود الطيبون بيضا وخبزا، فغسلنا وجه ذي الكسور وحاولنا أن نضع بعض الطعام في فم السجين ذي الرجل المقطوعة. كان الأول صامتا لايتكلم على الرغم من آلامه أما الآخر فظل يردد عبارة: أنا من أهل الهارثة. نفسه تعاف الطعام عيناه مغمضتان أنفاسه تلهث. أنا من أهل الهارثة. وفي الليل مات.

مات بهدوء من دون أن ننتبه له. كان لايقوى على الأنين لشدة الإنهاك، والألم وكنا متعبين من رحلة الفحص وضرب نائب الضابط فرقدنا طول الليلة كأننا أموات!!

بعد ذلك تغيرت كثير من المشاهد..

جاء سجناء آخرون من السجن المركزي، كل يوم يصل اثنان أو ثلاثة وعرفت بعضا من قاطنيه نحن سجناء قاطع البصرة. أخبروني أن الأمور تبدلت في السجن المركزي. انتقل الحرس القديم الشرس وجاءت إلى السجن مجموعة من الجنود تولى مسؤوليتهم رجل يجمع بين العنف تارة والطيبة تارة أخرى يكنى "أبا درع" من أبرز أعماله أنه استغل قانون العفو فأطلق سراح مجموعة من السجناء!!

كان السجناء القادمون من سجن الرضوانية إلى زنزانة المشفى يتحدثون عنا عن هذا الرجل الذي يمكن أن يقال عنه إنه بدوي

اختلطت في روحه طيبة البداوة ونقاوتها بعنف البعث وجبروته، فهو يرحم من ناحية ويُشفِق ويُعْدِم وَيَقْتُل من ناحية أخرى.

والسعيد من يفوز برضاه ويثير فيه نخوة الإنسان.

أخبار تبدو مفرحة لنا نحن المعتقلين في سجن المشفى. أصبحنا نحلم بالعودة إلى السجن المركزي، فما كان علينا إلا أن نخفي آلامنا على أمل أن نرجع إليه. وزادني أملا أنني كنت أحلم بالنجاة، فدفعني ذلك الحلم القريب البعيد المنال إلى أن أتمسك باعترافاتي السابقة التي شحذت ذهني لأجعلها متطابقة لاثغرة فيها، فرسمت صورة مبهمة لشخص أبي درع. أيعقل أن تزج الدولة بمسؤول أمني كبير فيه خصلة من العطف إلى جانب روح التشفي والعنف؟شيء غريب غير أني قد ربما أكون مجانبا للحقيقة في ظنوني إذ لعله رجل ذو روح بدوية يمكن أن تستميلها بالرجاء والطلب والنخوة والشيمة على الرغم كل ماتتمتع به تلك الروح من قسوة وعنف!!

ولو كان ماسمعناه من سجين أو اثنين لعددتهما من المندسين، والحقّ كانت تلك شخصية المسؤول "أبي درع" وكيل مدير المخابرات"ذي الصلاحيات المطلقة وهي نقطة الضعف التي عرفت كيف أعزف عليها فأستميل قلبه وأجعله يقف إلى صفي!!

كان أصدقاؤنا الجنود ينقلون إلى نائب الضابط كل يوم رغبتنا في أن نعود إلى السجن فقد شفينا تماما وفق ما ادعيناه وأكدوه هم له، وهدفنا الوحيد هو أن نتخلص من تعذيب لا يطاق وجدناه أكثر بعشرة أضعاف من تعذيب السجن، فهناك على الأقل

ينتهي كل شيء بعد أن يتم التوقيع على الاعتراف فإما الموت أو الانتظار!!

لكننا هنا فقدنا الراحة والنوم ولايهم صاحبنا نائب الضابط أن يعذب أي سجين سواء من توقف تعذيبه في الرضوانية بعد الانتهاء من التحقيق معه أم لم ينته. كانت شهيته للتعذيب مفتوحة بشكل غريب، وكثيرا ماكنا نراه يأتي فيعذب ثم يجلس يلهث في غرفة الضباط بعدها يبتلع لفة الساندوج ويشرب قدح شاي ثم يعاود الضرب والركل والجلد من جديد.

مهما يكن فقد كان السجن أرحم بكثير من ردهة المشفى.

بعد خمسة عشر يوما في سجن المشفى الجحيم أحضروا لنا جلابيات وسمحوا لنا بالاستحمام.

عالم إلتقطنا فيه أنفاسنا.

بدوتُ كما لو أنني في عرس وفرح طاغ.

هناك في السجن وجدت الأوضاع تغيرت تماما. لقد سُمِحَ لنا بالتنزه في الحديقة. ووقع بصري عند جندي على خيار وعنب، عسكريّ أعطاني عنقود عنب وخيارة وبعض الخبز. وكان في وسط القاعة تحت المروحة قدر مليء بالماء وكأس للشرب، وكنا نقف في طابور منتظرين أدوارنا في الذهاب إلى الحمام من دون ضرب!!

بل والأكثر من ذلك أني سمعت أن هناك من أُطلِقَ سراحهم ومنهم المراقب السابق أحمد الذي شك بعض السجناء أنه وشى بالأربعة الذين حاولوا الفرار من السجن، وكان إطلاق سراحه

مدعاة لتشبيت الشكوك حوله!!

كان كل سجين يقرؤ ذلك في عين الآخر إذ يرد اسم أحمد عرضا من دون أن يصرح به!!

غير أن هناك أمرا حز في نفسي كثيرا. سجناء الغرفة معي ظنوا أن بي أنا العائد من المشفى العسكري مرضا ما معديا فأبدوا تخوفهم مني. راح الجميع في الزنزانة يتطلعون إلي بشيء من الريبة كأني مصاب بجرثومة تثير الرعب أسوأ من جرثومة السل والجذام بل أشد فتكا من التعذيب والوخز بأسلاك الكهرباء. في الوقت نفسه كنت أتحاشى نظراتهم فلم يكن بمقدوري أن أتحداهم. بعضهم حذَّرني من أن استخدم قدر الماء. تلك الساعة أدركت أن هنا في السجن من يشاركونك المصير والعذاب وهم أشد قسوة عليك من الجلادين، من دون شكّ إنهم يخشونني، وإن لم أؤذهم، أكثر من خشيتهم الجلادَ والتعذيبَ اليوميَّ والإهانات، شعرت وأنا أقرؤ النفور في عيون السجناء ووجوههم أنّي ملوّثٌ تماما، مصاب بداء أدرَكَه -في قبل أن أعيَه أو أحسّه -سجناءُ من حولي ينتظرون مصيرا مثل مصيري، ولا بدّ أن أظنّ في نفسي مثلما يتوهمون عنّي، فأتلهى بشيء جديد يشغل فكري بعض الوقت عن هذا المكان المغلق المعتم، مع ذلك لم أحقد قط على أيٍّ واحد منهم. اقتنعت أننا منذ اليوم الأول لزجنا في السجن لم نك قط مع بعضنا. هنا ترى الآخرين ولاتراهم تسمعهم ولا تسمعهم كل منهم يعيش في عزلة عنك وعن السجناء الباقين مثل أغنام مجتمعة في مرعى. قطيعُ بقرٍ ينظر بعيون بلهاء، يأمل بقبضة حشائش يقضمها

مثلما يفكر بالضبط أيّ واحد منا متى يموت أو متى يُطلّق سراحه. من أنت. من أنا. . كيف قدمت؟ لا أحد يدري ولا أحد يحب أن يسأل الآخر. في أية لحظة يمكن أن يتحول أيُّ كائنٍ حيٍّ بفعل رصاصة إلى جثة هامدة. مايربطنا أشياء ثانوية لاقيمة لها الشرب من إناء واحد والنوم متراصين ثم السياط نفسها والإهانات. بإمكاني أن أشتكي الذين رفضوني. أقدر بيسر أن أعرضهم للتعذيب والإهانة فنال حصوة السجانين وسخط المسجونين لكنني أعرضت عن ذلك. وكان مما خفف الضرر عني والمعاناة أني استطعت أن أكسب ودّ جنديٍّ يُدعى عبد الخالق. كان لايبخل علي ببعض العنب والطعام وحين سمع عن تخوف الآخرين مني جلب لي علبة مربى فارغة رحت أملؤها من الحنفية كلما عطشت ولكون الغرف ضيقة ومن معي يتخوفون مني فإني اتخذت مكاني قرب عتبة الباب فكنت أبعد مسافة يسيرة عن وعاء كبير يتبول به السجناء خلال الليل فظلت تلك الرائحة الكريهة الحامضة تلفح أنفاسي وتزعج نومي أثناء الليالي التي قضيتها في هذا المكان!!

أخيرا رأيت أبا درع نفسه!!

نعم رأيت ذلك الشخص العجيب الغريب الذي يجمع الطيبة والعنف في الآن نفسه!

الرجل الذي يطلق سراح سجين بيد ويخنق ثانيا بيد أخرى!!

ليس بإمكاني أن أفعل أيَّ شيء سوى أن أستدرَّ عطفه. فقد وقعت عيناي على شخص في الخمسين متوسط الطول أسمر السحنة أسود الشعر ذي بطن من غير كرش يرتدي الملابس

العسكرية دون أن يضع أية رتبة على كتفيه!!

نفخته برجاء:

-سيدي أنت رجل حقّاني كما هو الشائع المعروف عنك. الكل يتحدث عن طيبة قلبك وخلقك وكرهك للظلم كلنا نعرف أنك لاتظلم أحدا أرجوك أن تطلق سراحي!

فتأمل في وجهي برهة ثم التفت إلى مرافقه قائلا:

-سجل اسمه!!

لم يتكلم معي أيَّة كلمة. كان هناك أمل يزداد يوما بعد يوم في أني سوف أغادر هذا المكان وعليَّ أنْ ألحَّ كلّما جاء أبو درع فلعله يوما لأي سبب يغادر السجن فيحل محله من هو أسوأ منه وفي المرة الثانية حضر يتفقد الزنزانات فاعترضت طريقه وأعدت الاسطوانة نفسها ورأيته ينصت إليَّ باهتمام ويطلب من مرافقه تسجيل اسمي، وفي مرة أخرى رأيته يتجول في الساحة العامة ولم يكن أحد ليستطيع أن يقترب منه، هناك يكون نصيب من يصل إليه الضرب. والحق بدت صحتي تسوء من جو السجن العام فدفعني الأمل واليأس إلى اعتراض طريقه فوقعت على كتفي عصا أحد الحراس، وشخصت أمامه وجها لوجه وكنت حيثما قابلته زدت جملة أو جملتين على عبارتي الأولى التي أسمعته إياها فحفظتها عن ظهر قلب، وبعد أيام زارنا في القاطع الداخلي فهاج في وجهي زملاء السجن. وحجّتهم أني قابلت أبا درع عدة مرات ورجوته أكثر من مرة، والآن جاء دورهم ليستوقفوه، ويلتمسوا مساعدته بدلاً من أن أستغلّ وقت الزيارة القصيرة في إعادة الاسطوانة ذاتها. راح بعضهم

يتكلم بحدة وعصبية. فانسحبت من دون أن أحقد على أيّ أحد اعترض طريقي ومنعني من أن أكرر الشكوى.

لقد منحتني معاملة الجندي عبد الخالق كثيرا من الثقة والأمل فكنت أندفع معه لأساعده في ما أقدر عليه من ترتيب وغسل وتنظيف عندذاك سألته إن كان بإمكانه أن يساعدني في الانتقال إلى غرفة أخرى فغاب قليلا ورجع إليّ مع مسؤول القاطع الذي قبل أن أنتقل إلى الغرفة التي يعتقل فيها كبار السن!

كانت الغرفة أكثر سعة قليلا.

وتفاءلت حين عرفت أن هناك اثنين من السجناء فيها أُخلِيَ سبيلهما قبل أيام قليلة!!

وهي الليلة الأولى التي أنام فيها على بعد مسافة معقولة من وعاء البول فلا تصل إلي رائحة الحامض الكريه ثم كانت الليالي التي عاودتني فيها الأحلام بعد انقطاع طويل، وأنا مستلق على الوسادة يدي اليسرى تحت جبيني وركبتاي ملصوقتان إلى صدري كأني أخشى على أجزائي أن تغادرني، وأولها رجلي الحجة على براءتي، وهو الوضع الذي اتخذته عند نومي منذ أن خرجت من الحمام وتمت من دون غطاء فتلاشى في إحساسي بالموت والألم فكنت أنام بتلك الوضعية إلى الآن!!

في مثل تلك الرقدة جاءني أبو درع، وَحْدَنا في الزنزانة أنا وهو، صمت مطبق، فراغ تام، كان الشرر يلوح من عينيه لزمنا الصمت مَعَاً وَبَسَطتُ نظري في الزنزانة فوجدتها تمتد إلى بُعْدٍ مترامي الأطراف. أشرت بإصبع سبابتي اليسرى نحو فضاء الغرفة الواسع

ونطقتُ بغضب:

-أنظر لا أحد هنا ها أنت اطلقت سراح الجميع فبقيت أنا وحدي فقط!!

تشبَّث بالصمت مطلقا العنان لنظراته أن تنغرز في جسدي، نظرتُ إلى الأسفل وإذا بي أمدُّ يدي عن غير وعي إلى وعاء البول البعيد عني فألتقط منه قطعة سلاح. لم يتزعزع أبو درع من مكانه، صحت وسحنة وجهي تنقلب إلى الضحك:

-حاذر إني لاأعرف استخدام السلاح!"وأضفت وأنا أقهقه" هذه رجلي تثبت براءتي أنام وأَضُمُّها إلى صدري كأني أخاف أن تهرب وتتركني من غير دليل!

ضغطت على الزناد كأي محترف يجيد التصويب عندئذ تناثر الرجل إلى أشلاء توارت بعيدا خارج الزنزانة. ابتسمت. رحت انفخ فوهة المسدس وأخفيه ثانية في وعاء البول. kiss kiss عرضك. أستاذي مدرّس اللغة الإنكليزية لم يش بي. ساعتها أدركت أن أثر الجريمة انمحى تماماً فعدت إلى نومتي السابقة لأجد أني تحولت فيما بعد إلى صوص صغير داخل بيضة. حسنا. ذلك يساعدني على التخفي فلا أحد يشك فيّ. صوص يقتل رفيقا حزبيا كبيرا. هذا محال، فقط أطرافي الأربعة مازالت تتبعني بشكلها الحقيقي. رجلي المريضة انقلبت كاليمنى، هذا لايهم. لتكن كيف تشاء شرط أن أخرج من السجن، قلت ذلك مع نفسي وبادرتني فكرة التخلص من البيضة. أريد أن أتحرر، فأخذت أنقر بمنقاري، أنقر حتى بدأت تتكسر. طقطقة القشرة تكاد تثقب أذني. تتثلني من

عالم النوم، فأصحو على صوت خرير، أستدير برأسي نحو الصوت فتقع عيناي على الشيخ أبي أحمد ذي الخامسة والستين من عمره وهو جاثٍ أمام وعاء البول يعصر نفسه، وكان السجين الآخر يغط في نوم عميق وحشرجة تداعب صدره أقرب إلى الشخير، أما أنا فقد تظاهرت بالنوم، وكان الحلم بمثابة نبوّة تخبر عن زيارة أبي درع إلى قاطعنا ومروره بالزنزانة المخصصة لكبار السن!!

وفي المرة الأخيرة فكرت أن استفز نخوته، واستثير همته بعبارات حادة لكنها لاتجرح. عبارات تؤكد قوته وأخلاقه وتنفيها عنه أيضاً، فاندفعت أضيف للديباجة السابقة:

-سيدي طلبتُ منكَ أربعَ مراتٍ أن تأمر بإطلاق سراحي وأمرت مرافقيك أن يدونوا اسمي. أنت كلمتك واحدة إذا قلت أمرا لاتغيّره حتى لو انقلب العالم كلُّه، هذا مايعرفه عنك السجناء والناس في الخارج. كنا قبل أن تأتي لانشعر بالأمان وها نحن ننعم بطعام جيد وراحة تامة ويبدو أنك تستثنيني من هذه القاعدة فمعي يمكن أن تكون كلمتك اثنتين وثلاثا وربما يكون ذلك الإهمال بسبب تماستي وسوء حظي!

رأيت علامات الغضب بدأت تلوح على قسماته ثم استرخت عضلات وجهه وعاد إلى هدوئه المألوف فوجه الكلام إلى مرافقيه:

-هاتوا ملفه!!

في هذه اللحظة خلت أني استغرت في أعماقه أقصى حدّ من الحماس للخير والشر من دون أن أبالي بالعواقب الوخيمة لما قلته

بسبب اليأس والقنوط ومرض جديد أضفته إلى جسدي و أقنعت نفسي به إرضاء لمن حولي. بقيت صامتا أتطلع في عينيه وماهي إلا لحظات حتى التفت إليَّ قائلا بتهديد وترغيب:

-إذا وجدتُ في ملفك أنك كنت تقف في حاجز أو حملت سلاحا بوجه الدولة فإني أنفذ فيك حكم الإعدام هنا في مكانك هذا الذي تقف عنده!!

-سيدي أنا لاأعرف الرمي ولم أتدرب على السلاح بسبب المرض!

-هذه المرة سترى أن كلمتي واحدة.

-إذا كان الأمر كذلك فأنت بريء من دمي.

-حسنا الآن أقرأ ملفك.

والتفت إلى مرافقه:

-مرهم أن يحضروا لي ملفّه!

كنت في غاية القلق إذ خشيت أن تكون هناك زيادة من إضافة المحققين في توقيف شط العرب أو سجن البصرة وربما من محقق الرضوانية. كنت أوقع على اعترافاتي من دون أن يسمحوا لي بقراءتها فإذا ما اطمأن قلبي إلى الاعترافات ساورني الشك في التقارير المكتوبة عني من أهل التنومة، وقد يعذّبني شكّ بأستاذٍ كان لطيفا معي في المدرسة وأنكرني في السجن، ولم أستبعد قط أن تكون هناك نساء تسع كتبن عني وبعض الرجال وإن كنت أشك في أن ماقاله محقق السجن المركزي مجرد استدراج. المراقب قال لي استعد أبو درع وقع الملف، فبقيت معلقا بين أن يطلق

سراحي أو الإعدام!!

أحمل سلاحا أو أقف عند حاجز!

كنت أرسم لنفسي صورتين متناقضتين، فأرى في الأولى أن الموت خارج السجن يمكن أن نراه، وهو قريب، بعيدا عنا بألف شكل وشكل: صدمة سيارة. مشنقة. غرق. حريق. قتل بالسكين. سكتة قلبية في هذا المكان وحده يخلع الموت أقنعته المتعددة فيعرّف نفسه بشكل واحد فقط هو الإعدام بالرصاص!

معادلة صعبة قد تكون لمصلحتي. أنا لم أر سلاحا قط في حياتي إلا مع ترنتي في السينما وكاري كوبر وهما أول من غاب عني منذ اليوم الأول لاعتقالي. أين اختفيا. كما لو أنهما وجدا عذرا لي في اختفاء السندباد المفاجيء. بأي أدغال أعثر عليهما وعلى ثالثهما كوردن مشن؟أعترف اني حزت كثيرا من المسدسات والبنادق في طفولتي. كلها اندثرت وواحدة من البنادق أخفتها أمي عني. لوت شفتيها وتمتمت: قرف. لاأدري في أيّة زاوية دسّتها. كنت أضع الفلينة في رأس السبطانة وأوجهها نحو أية ذبابة جاثمة على الباب أو الحائط. طق. تلتصق بالجدار ويسيح دمها.

-مادمت تقنص الذباب فلن ترى البندقية بعد اليوم؟

ويؤكد أبي مناصرا أمي:

-أمك معها حق هذه قذارة!

فأين اختفت ياترى بندقيتي. أشكّ أنّ أمي منحتها لأحد الأطفال من معارفنا، فقد بحثت عنها كثيرا. قلبت خزانة الملابس والسطح والحمّام لكن جهودي ضاعت عبثا ولم أعثر عليها إلا بعد سنوات

طوال يوم تكدست بنادق في بيتنا ، رشاشات كلاشنكوف. لو رآني أبو درع وأنا أحمل الكلاشنكوف فارغة من أية إطلاقة ثم ألف في شارع التنومة متباهيا بين الناس والحق إن صهري كان يفرغ الرصاص من مخزن البندقية خشية من أن أخطيء وكثيرا ماكنت أصرخ بوجهه محتدا من تحفظه الصارم في الاندفاع خارج البيت:

-جبناء أتبقون طول أعماركم جبناء!

لاتخافوا أنتم شجعان.

يا عالم. يابشر. لاتخافوا. الطاغية أصبح في خبر كان.

من التنومة إلى كردلان ومن مقر الفرقة المنهار إلى الجامعة. صهري كان يخرج في بعض الأحيان. كثيرا ماحذرني. تجربة الجيش علمته أن يحسب حسابا لكل خطوة يخطوها. أما أنا فكنت مكشوف الرأس وبندقيتي لاتؤذي. أحيانا أصرخ بوجهه مكررا جملتي المعهودة:

جبناء. جبناء.

مهما يكن فالرفيق يعتمد على التقرير أمامه واعترافاتي. أنا لاأعرف الرمي سيدي أبا درع هل يعقل أني أنا الأعرج أقف على حاجز آمر وأنهي الرفاق المدججين بالسلاح.

مر يوم وشهيتي تأنف الطعام. رحت أقنع نفسي بحجج ثم أعاود أنقضها. أسخر من نفسي فأرى سخريتي تلقي بظلالها على الآخرين ولا شي سوى أن أظن أني العاجز ذو العاهة هزمت جيشا بكامل عتاده. عقلي يقول ربما هناك كلمة من إنسان ما تدينني فهؤلاء

يبحثون عن أية حجة للقتل وعواطفي تستحثني للبراءة. حاجز وحمل سلاح وأنا في معادلة واضحة غامضة. الوثيقة الرسمية -دفتر الخدمة – تعفيني من السلاح بل من سلامة البدن. تقارير الأطباء، وهناك شكٌّ فيَّ وكتابات عني وربما هناك من رآني خلال الأحداث وأيام الفوضى أخرج وأتجول بين كردلان والتنومة والفلكة والجامعة القديمة!

تيمورلنك، أمي قالتها. بعض أصدقاء المدرسة، فهل أكون أمام أبي درع نسخة جديدة لذلك القائد الأعرج المغامر. ذي الرجل الذهب التي لا يفرّط بها !

تلك الليلة – ليلة الحسم بين الاعدام والبراءة – غالبني أرق وتفكير إلى ساعة متأخرة وحالما غفوت عاودتني كوابيس قديمة. رأيت جماعة من هاربين محكومين بالإعدام في سوق التنومة خلال الحرب العراقية الإيرانية. جاؤوا مع حراسهم إلى قاطع كبار السن. وشاهدت سجناء أعدموا في ساحة سجن الرضوانية. ومجاميع مكبلة الأيدي رثة الحال تصبح هدفا لإطلاقات علي كيمياوي. كانت جماعة في حافلة أُوقِفَتْ فجأة تصرخ. يُدْعون أنهم رجعوا من نزهة ولا أحد يصدّقهم. أيّة مجموعة تدلف ترجو حرّاسها أن يطلقوا النار، كلهم فرحون يرقصون ويغنون، بعضهم يرتدي أقنعة سوداء، أما الحرّاس فكانوا صامتين حتى غصت الزنزانة. كاد الهواء ينعدم فشخصت ببصري إلى الجدران أبحث عن نافذة حتى رأيت فتحة مدورة مغلقة بصفيح من المعدن أسفل السقف. غالبتني حيرتي، كنت أستجمع قوتي فأحاول أن أنطّ نحوها. أنفاسي تتقطع

وأنا أستجمع قوتي. أقفز. أقفز. أزعق وَمَنْ حولي لايأبهون بي لكني استطعت أن أصل إلى النافذة وإذا بأبي أحمد ورسول السجين الآخر معي يدلكان صدري ويدي:

-بسم الله الرحمن الرحيم!

-الحمد لله أنت بخير !

كان كابوس بثقل جبل يجثم على صدري، للمرة الأولى أرى رسولا يخرج عن صمته ويدعو لي، أما أبو أحمد فاستغرق في قراءة المعوذات ويداه ممسكتان بيدي. هكذا أمسكت في لحظة الموت ذات يوم بيد شخص لاأعرف من هو. رحت أتطلع في عينيه وهو جالس القرفصاء ينظر إلي بعينين ذابلتين:

-ولو لقمة واحدة أرجوك!

لقمة واحدة فقط فأنت لم تأكل منذ الأمس.

كادت اللحظة تعيد نفسها معي فأموت قبل أن أعدم. مثل الرقم ١٤. هذا اليوم شعرت أني قريب من الحياة والموت، وفي اليوم ذاته، وبعد ليلة أرق مليئة بأحلام حلوة ومرة لم ترتق فتكون كوابيس تجثم على صدري، زارت القاطع النسوة اللائي كتبن تقاريرهن عني. تسع نساء اقتحمن الزنزانة. كن بين محجبة وسافرة وذات نقاب ومن ترتدي فستان الميني جيب. سمراء بيضاء شقراء سوداء. طويلة وذات قصر. قلت إن ذات النقاب هي البيضاء، فالطويلة شقراء والقصيرة سوداء. حليمة شكرية سليمة خديجة من منكن أم كلكن كتبتن تقارير تدينني. من أنتن؟ الا تخجلن ابو الفيصل رئيس الجمعيات الفلاحية رآى قطنا احمر وأكل قشر موز، لكنه

نجح في تقسيم جيكسلوفاكيا. أنت أنت! – أنا؟ أنا؟أنت نعم!نعم ماذا؟كسك لوفاكتا لسانه لا يستطيع نطق الاسم الاجنبي – ابن أختي مشى مازال صغيرا يقول عنكن دحاب دواويد. لكنه بعد تسع سنوات حين أخرج من السجن يقدر أن ينطق الكلمات. قولي نعم سيدي! نعم سيدي. هل كتبت تقريرا عني؟كلا. بل نعم كلا كلا ، التفت إلى ذات العباءة:

أنت سأشنقك؟كلا. بل أنت. تركتها وتوجهت للعارية:

أنت؟نعم أنت متأكدة؟أبو الفيصل شفتاه غليظتان أما لسانه فلا ينطق أيّ اسم أعجمي نعم أنا كتبت!لم أصدقها ووقفت عند صاحبة البرقع. قد تكون هي أم عباس الفراشة التي زغردت يوم اجتاحت قوات الرئيس الكويت. خطفت برقعا من على وجهها فرأيتها هي هي. أم عباس نفسها لكن بدت بوجه أسود كالفحم أقرب إلى وجه رجل يلوح الرعب من عينيه:

أنت من كتبت.

نعم أنا ولاتصدقها "أشارت إلى العارية وأكدت بهزة من رأسها ويديها حيث شغلت بحماسها الفائض عن الحد عن كرهي لها" أريد منك الحلوان لي وحدي!

اقتحم علي خلوتي بهن معلمو مدرستنا على رأسهم الرامي بيد يقبض على رقبة السندباد ، والأخرى عصا. وقفت معاتبا إياهم وأنا أقول:

ها أنتم ترون أن الحرب انتهت كنتم مخطئين!!

فأجابوا بلهجة أطفال يقرؤون نشيدا مدرسيا بصوت واحد:

خاننا لقمان الحكيم الذي كان يدق السم لعدوه.

ناولني الرامي عصا. هي ذاتها التي يؤشر بها على اللوحة في الوقت نفسه يعاقبنا بها :مادام هؤلاء النسوة سبب محنتك فعلي أن أختار أي عقاب. كان الخطأ خطأك أيها التلميذ المغفل. لم يبصرنني أحمل بندقية وأهزم جيشا لكن ذاكرتي استحضرت يوما استثنائيا. ساعتها توزع أولاد الحارة فريقين، وليس هناك من حارس مرمى، الكل يرغبون في اللعب وتسجيل اهداف. طلبوا مني أن أجلس أمام أحد مرمين عملوهما من الحجر والخرق. حاول أن لا تدع الكرة تمرّ، قالوا ذلك وهي المرة الاولى. ولعلها الاخيرة، هؤلاء النسوة رأينني يوما ما العب الكرة فالتبس عليهن الأمر حتى تساوت رجلي المعاقة في الالم مع بقية أطرافي:

أنت

نعم

ابسطي يديك!

وأنت أيضا ابسطي يديك.

رحت أضربهن على راحات أيديهن بالعصا مثلما كان المعلمون يعاقبوننا في المدرسة. بسطت يدي وإذا بالمعلم يقول:

رائع يدان نظيفتان. لا وسخ في الأظافر، عال. عال. وأبو درع نفسه يدخل عليَّ فيطلب مني أن اضربهن. أترك العصا جانبا وأعود إليه. أحس بنظراتي الغاضبة فتراجع إلى الوراء مذعورا. كنت أحول بينه وبين باب الزنزانة فاستند إلى الحائط. وحدنا أنا وهو. أظن أن السجينين أطلق سراحهما فبقيت وحدي. تقدمت نحوه.

بحثت في جيبه عن مسدس وهمس لشخص ما ظنه قربه: المسدس في غرفة الضباط في تلك اللحظة راحت يداي تضغطان على رقبته، قوة هائلة داهمتني لاأدري كيف راودتني ومن أين أتت، وصرخت فيه وهو يلفظ أنفاسه بين يدي فيندلع لسانه فوق أسنانه الصفراء:

الآن أصبحت كلمتك واحدة لاتتغير!

منذ تلك الليلة شعرت بجسدي يتحرر من وجعه، ألم الضرب والتعذيب مثلما اختفت عنه من قبل آلام المرض!

كأنَّ الحلم منحني طاقة للتحمل وعدم مبالاة، مالذي يمكن أن يحدث أسوأ من الإعدام؟ فأنا حققت ثأري خلال النوم ومازلت أعيش سعادة ذلك الحلم. لقد تغيرت حياتي من الجذور، فصممت على ألا أرجو أبدا درع إن هو مر بالزنزانة أو التمسه في أن يطلق سراحي. قلت في نفسي خير لي أن أتجاهل بل رحت أتمادى في تفاؤلي ففسرت بشارة الحلم. ظننت أن التسوة التسع هن تسعُ سنواتٍ حُكِمَ علي بها، فهذا الحكم خير ألف مرة من الإعدام!!

تسعة أعوام فقط لاأكثر هكذا يقول الحلم.

فلأشكر الله أيّ عقاب أخفّ وطأة من الموت!

-ماشاء الله أنفاسك كانت رائعة البارحة!!

حدثني أبو أحمد الذي اعتاد -بعد أن خفت حدة المضايقة عمّا كانت عليه أول الأمر -على النهوض مبكّرا لصلاة الفجر. هذا هو أول رجل يقتنص دليلا على جريمتي. انسياب الأنفاس، والنوم الهادىء. خفة الجسد. لاأهتم بعد اليوم أن أعدم أو يطول حبسي. لا أبالي فما زالت آثار الحلم تسري في كياني فأعرف أن لي قوة

هائلة أضعاف ما عند أبي درع والحرس المرافقين. إن كانوا هزموني في النهار فأنا أتحداهم مجتمعين أن يأتوا إلي خلال الليل فمعي في أية ليلة كانت المدرسة والمعلمون وكامل الرامي الذي يسخر من الوقت ومن كل شيء!

بهذه الطريق حامت حولي أحلام اليقظة حين جاء أبو درع قاطِعَ السجناء وإذ مَرَّ بقاعة كبار السن بقيت واقفا في مكاني، ولم أندفع نحوه. لقد تعبتُ من الشكوى والرجاء فأيقنت أن عليَّ أن أترك الموضوع قبل أن أتعجَّل بنفسي أمر إعدامي أو على أقل تقدير السجن تسع سنوات كما يقول آخر حلم لي. لعلّ اليأس بلغ بي مداه فأيقنت أنه من الأفضل لي أن يظلّ أمري معلقاً من دون أن أتعجل الأسوأ لكنه توقف فجأة منتصف الممر، وقطب حاجبيه حالما وقع بصره عليّ وهو يتسأل:

-أمازلت هنا؟

-نعم سيدي!

أتراه يشمت أم يسخر أم يعدني لحفلة إعدام؟

ألم تخرج بعد؟

-لي سيدي أنا توجّه السؤال؟

-نعم أنت أما زلت هنا؟

-نعم. ماذا سيدي؟

هل أخطأتُ السمع أم أن الرجل أقرَّ بهزيمة البارحة. وغد حقير هاجمت إيران. اكتسحت الكويت. لصّ. بعت المسروقات في شارع دينار. يداي تضغطان. كل الجبروت الذي يلوح عليه هذه اللحظة

بدا زائفا البارحة. القوة تبخرت. تلاشت. ذلك لم يكن حلما، ومثل هؤلاء لايمزحون. الرجل محق فيما يقوله فأنا لاأجيد استعمال السلاح بالتالي لا أقدرُ أنْ أقفَ عند حاجز فلِمَ أنفي عن نفسي مايثبته الآخرون؟ الحق صدمتني جملته بعد اليأس والكوابيس والخوف والرجاء، فهل عدت أحلم من جديد؟جاء صوت كبير مرافقيه ينتشلني من حالة ذهول شبيهة بالغيبوبة:

-سيدي أنت وقعت الأمر عصر الخميس ثم كان يوم الجمعة، أمس الإثنين تعرف أنها عطلة الضابط مسؤول القاطع.

يبدو أن الأيام التي غفلت عنها نسيتني. الخميس. الجمعة. يوم عطلة. السبت. في أي يوم أنا، وأية ساعة تطلّ عليّ بالسعد؟ فقاطع المرافق ومازلت فاغرا فمي من الدهشة كأني أقف أمام محال يتحقق:

-حسنا حمينا.

تأمل قليلا وأردف:

-رتبوا أمر إطلاق سراحه الآن.

فقال المرافق وهو يهز رأسه:

-أمرك سيدي لكن ليس عندنا سيارة جاهزة!

-ماذا عن سيارة العصر؟

والتفت إليّ مؤكدا:

-دعوه يذهب مع السيارة المغادرة وقت العصر!!

قال عبارته وخطى في الممر باتجاه الباب الخارجي. كنت أسمع وقع حذائه على الأسفلت فأحسّ أني نفضت حملا ثقيلا عن

كاهلي. أخيراً لفحتني أنفاس الحرية عنْ بعد فنسيت لحظات مشهد الحراس وهم يمرون أمام الزنزانة بأسلحتهم وملابسهم الخاكية المتربة، وتلاشى من جسدي في رمشة عين لسع السياط والهراوات، الإهانات والنظرات القاسية وولت كما يتبخر الماء صفعات نائب الضابط وركلاته اليومية حين كنت في عنبر المشفى العسكري. مشفى يود المرضى الهرب منه إلى السجن. من السهل أن تظل الأشياء السيئة والذكريات القبيحة عالقة في أذهاننا زمنا طويلا ثم ننساها في لحظة فرح عارمة.

بل ليتني أستطيع أن أنسى وإن بعد حين.

كادت الفرحة تشلُّ لساني فلم أقوَ على الكلام بل لم أتمكن من الوقوف أو الجلوس كأني تسمرت مثل المسمار في مكاني، من قبل تضاربتْ في ذهني أفكار ناعمة وأخرى متوحشة :كنت مخيرا بين ثلاث حالات يصنعها لي هؤلاء الذين يتحملون مشاهد مقرفة كي يزعجوا الآخرين: إما أن أموت، أو أخرج ولست أنا قط إذ أخرج كما أنا مثلما دخلت. قد أعي نفسي بشكل آخر أو لا أعيها.

الآن أصبحتُ حُرّاً.

حر منذ يومين ولا أدري.

حر على الرغم من كوني في زنزانة فَقُدِّر للرصاص أن يتحاشاني فلم أصبح جثة تحمل رقما ما. سأخرج من هذا المكان قبل انقطاع النهار وربما بعدي يخرج آخرون ويموت آخرون، ولعلّ المبولة التي رأيتها أولَ يومٍ وصلتُ تلك الثلاثة أمتار تتغير إلى شيء

آخر في المكان نفسه. تصغر أو تصبح أكبر لكن بشكل آخر يخترعه سادة المعسكر ولا يبالون بإزعاجه مادام يوحي للآخرين مثلنا بالغثيان. بغض النظر عن كل ذلك بعد ساعات أقرب إليَّ من طلوع الفجر أسافر إلى الجنوب. أصبح في البصرة. هناك أنفض عن جسدي ورأسي قملا أبيض وأسود صاحبني منذ الأسبوع الأول لدخولي السجن. أصحو وقتما أشاء وأنام في أيّة ساعة. بإمكاني أن آكل طعاما نظيفا. أتوضأ بماء طاهر وأكون بعيدا عن شبح الموت، فهنا في هذه الزنزانة لابد من أن تموت رميا بالرصاص مثلما يعدم الجندي الهارب من الجبهة حتى لتكاد تظن أن الموت في الخارج بعيد كل البعد عنك مجرد أن تتذكر أن له وجوها متعددة أخرى غير محصورة بشكل واحد، وربّمايكون الخارج أكثر سوءا لكنه يظلّ دائما الأفضل حتى لو كان الموت على بعد خطوة منك. فإنك تشعر أن هناك فضاء مفتوحا يمدّ ذراعيه إليك في أسوأ الحالات.

كنت أعيد صور الموت المرحة خارج الزنزانة وأنا بين مصدق ومكذب قصة نجاتي التي انبثقت فجأة أمامي كما تنبثق وردة رائعة الحسن من بين الصخور الجلدة الصماء، أما الشيخان رفيقاي في الزنزانة – زنزانة المسنين – الصامتان الناطقان فقد راح كل منهما يمطرني بالتهنئة والبركة والدعاء كأنه هو الذي أُطلِقَ سراحه. كانا يرجواني أن أدعو لهما في أن يكشف الله الكرب الذي هما فيه عما قريب كما كشفه عني. لاشيء أكثر. فقد يحسد آنسان آخر على شيء تافه ماعدا هذه اللحظة التي يختفي

فيها الحسد والغيرة والكره تماما كأنّ نجاة شخص تعني نجاة آخر وإن كان هذا الآخر على يقين أنه يموت لامحالة. كنت أدعو لهما وأنا أودعهما وأغادر السجن الذي بقيت فيه حرا طليقا. منذ ثلاثة أيام دون أن أعلم بذلك مثل عصفور وجد باب القفص مفتوحا فلم يطر لأنّه ينتظر عاصفة هوجاء تعبر كي يحلّقَ بعدها في الكون الفسيح غير أني جهلت أني طليق وأن باب السجن أعاقني ثلاثة أيام وكانت تلك أقسى ثلاثة أشهر مررت بها في حياتي.

مؤسسة المثقف العربي

مؤسسة المثقف العربي، مؤسسة غير حكومية، تعنى بالشأن المعرفي، وتمارس نشاطها في مجالات الثقافة والفكر والأدب والفنون. تتخذ من مدينة سيدني الأسترالية مكتبا رئيسا لها، ومن صحيفة المثقف موقعا على الشبكة العنكبوتية.

جاء الإعلان عن تأسيس مؤسسة المثقف العربي في ٢٠١٠/٠١/٠٥م استجابة لمتطلبات العمل الإعلامي الراهنة، وتلبية لضرورات نشر وتعزيز وإشاعة ثقافة التسامح والمحبة والتكافل، وايجاد مركزية مؤسساتية تضمن ترابط الأعمال الصادرة عنها، ووضعها في سياق العمل المنظم. فبعد عمل متواصل لثلاث سنوات في صحيفة المثقف انبثقت نشاطات أخرى، تطلبت وجود مؤسسة لإدارة شؤونها وتسيير أعمالها.

ومؤسسة المثقف العربي جهة مستقلة، ترفض العنف والتكفير، والتطرف المذهبي والسياسي، وتستقل برؤية بعيدا عن تشظيات الأيديولوجيا وكل الإنقسامات والخصوصيات التي تنال من كرامة الفرد والمجتمع. ساعية إلى ترسيخ قيم الإنسان عبر إشاعة ثقافة التسامح والمحبة والأخوة ووحدة المصير البشري.

ينبثق عن إدارة المؤسسة مجلس استشاري، يساهم في ترشيد سياسة المؤسسة، والتخطيط لمشاريعها المستقبلية، كما ستمثل نشاطات المؤسسة خارج أستراليا نخبة من المثقفين، سعيا منهم لتعميق الأواصر الثقافية بين أبناء الكيان المجتمعي المتحد.

مبادئ مؤسسة المثقف العربي

- نؤمن بالتعددية والرأي الآخر.
- ندعو للتعايش بين الأديان والثقافات.
- نتبنى قيم: التسامح، والحرية، والديمقراطية، وحقوق الإنسان.
- نحارب العنف والتحريض والتكفير.
- نرفض الخطاب الطائفي والأيديولوجي المحرض.
- نساهم في تعميق لغة الحوار والتفاهم وفق الثوابت الأساسية المستمدة من تعاليم السماء وقوانين الأرض.
- نعنى بالمثقف ومواقفه إزاء الأحداث والتحديات، ونعرّف بإنجازاته وأعماله ومشاريعه.
- أصدرت مؤسسة المثقف عددا كبيرا من الكتب، وهذا آخرها.

ماجد الغرباوي

رئيس مؤسسة المثقف العربي

www. almothaqaf. com

almothaqaf@almothaqaf. com